

لما هو اللسان



على خفافه دجلة والغرات

<https://www.facebook.com/Library.iq>

طاهر الطنّاسي

على ضفاف دجلة والفرات



مكتبة الطبع والنشر

دار المعارف

بمصر

دار المعارف

للطباعة والنشر

المحل الرئيسى بالقاهرة	٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية	٢ ميدان محمد على
مكتب فلسطين وشرق الأردن	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب السودان	شارع السردار بالخرطوم

هذه القصص

وضعت هذه القصص عن حياة بني العباس في عصرهم الذهبي ، لم أبتدع فيها أشخاصاً خياليين ، أو أحداثاً روائية على نحو ما يفعل كتاب الروايات . وإنما بنيتها من صميم الواقع بأسلوب أدبي ، ونسجتها من حقائق التاريخ السياسي والاجتماعي في ذلك العصر ، وجلوت فيها طائفة من مشاهير الرجال وكبار الأدباء في ملأ الفن القصصي الذي يلقي على التاريخ لوناً من الجمال والجلال وقوة التأثير .

وقد أردت أن أضع أمام القارئ صوراً ناطقة حيّة تخلع عنها أكفان الماضي الذي بقيت فيه أكثر من ألف عام ، وتبدو في ثوب عصري جديد يتفق وزى هذا العصر في الأداء والتفكير .

وبدأت بميلاد الدولة العباسية التي قامت على أنقاض دولة بني أمية بعد ما طوت في الخلافة والسلطان ألف شهر كاملة ، فصورتُ هذا الميلاد الجلال في قصة ، ثم أتبعتها بقصص أخرى عن أروع ما في ذلك العصر من أحداث ، وأشهر من فيه من رجال ونساء . وقد جعلت فيها للأدب نصيباً ملحوظاً لأنه كان كالسياسة والحرب من أبرز نواحي العصر

العباسي وألح ألوان حياته . على أن الأدب على الدوام ممتزج بحياة الأمم ، بل هو كنز لتجارب الأمم ، وتاريخ لعواطفها وميولها ، وسجل لما في الإنسان من صفات وغرائز ، وأداة أصيلة في توجيه الحياة الإنسانية منذ أقدم العصور . وأسفار التاريخ مملوءة بالحب والبغض ، والرحمة والقسوة ، والزهد والطمع ، واللذة والألم ، والأمانة والغدر ، والتسامح والانتقام ، وأمثلة الشجاعة والإقدام ، وغيرها مما هو مجال الأدب ومما يصدر عن الطبيعة البشرية وترجع إليه عند التحليل جميع الأحداث التي سطرها هذه الأسفار عن مختلف العصور .

وقد عُنيَت في هذه القصص بتصوير هذا الجانب ، وتخيرت بينها بعضاً من مآسى الملوك والوزراء والقواد والأدباء . على أني لم أخل هذه المآسى من الطرافة الأدبية تخفيفاً لما تضمنته من ألم يثير الأشجان . ولم يكن رائدى في ذلك كله أن أكتب تاريخاً على نمط ما يكتب المؤرخون ، بل أضع قصصاً مشوقة عن هذا العصر التاريخي ، تنقل القارئ في يسر إلى حياته الاجتماعية والسياسية ، فيتعرف أسلوب أهله ، وما كان لهم من عادات وأخلاق وأهداف .

ولما كنت قد حافظت على القصد في الوقائع وأسماء الأشخاص ، وحرصت كل الحرص على وحدة القصة وعناصرها الضرورية ، فقد تنكبت التمهيد والشرح مما يعمد إليه بعض الروائيين والقصصيين حتى لا يمل القارئ أو يشرد ذهنه ، أو يتقيد برأى خاض أو تأثير معين ، فيقل شوقه

وتحبط لذته ، بل دخلت رأساً في الموضوع ، وتوخيت ما عناه الكاتب الأميركي إدجار آلن بو عن القصة في قوله « يجب على القصصى الأديب ألا يكيف أفكاره لتتناسب مع حوادث القصة ، بل ينصرف أولاً إلى اختيار تأثير معين يريد إثارتة في نفس القارىء ، ثم يعود إلى الحوادث فيضع منها ما يناسب هدفه ، ويرتبها بأقوى الأساليب على إبراز ذلك التأثير المنشود ». وكذلك كنت في تأليفي لهذه القصص بقدر المستطاع . وربما أحوجنى هذا التأثير المنشود إلى أن أبدأ القصة من آخرها أو وسطها حفزاً للقارىء على الانتباه لجرى الحوادث وعبر الأيام ، وزيادة في التشويق مع المحافظة على الوصف اللازم والتحليل الضرورى للأشخاص والأحداث وقد اقتضىنى هذا العمل مجهوداً شاقاً ، لأن عناصر هذه القصص المرتبطة بأبطال هذا العصر مبعثرة في بطون التاريخ وكتب الأدب . وقد يكون للبطل الواحد صلات سياسية وأدبية بأشخاص كثيرين وأحداث عدة . ولا بد من الإحاطة بهؤلاء الأشخاص والأحداث حتى تتم لتصورته وتنجلي حقيقته ليوضع في المكان الملائم ، وليكون ماثلاً للأذهان على الوجه الصحيح .

هذا إلى ما يفرضه أسلوب القصة من الطرافة والرشاقة وعمق التأثير . وقد يكون ذلك سهلاً ميسراً في كتابة الرواية الموضوعة التى يتيح الخيال فيها للأدب مجالا . ولكننى وقد أخذتُ نفسى بالحقائق التاريخية كانت مهمتى صعبة . وكانت تعوزنى أحياناً عناصر الخيال التى لا بد منها لكاتب

القصة ، فاعتمد على أسلوبى الأدبى ، وما يبيحه الفن من أوضاع لا تشوّه حقائق التاريخ ، لأننى أريد أن أجلو فى جمال الواقع صفحات هذا العصر الذهبى الذى كان عصر الحضارة الإسلامية فى أوجها ، وكان أبرز عصور الإسلام فى الحرب والسياسة والأدب والاجتماع .

على أن إحساسى بأن من حقائق العصر العباسى وأحداثه ما هو أوقع فى النفس من الخيال قد يَسّر أُممى الطريق ، وجعلنى أتغلب على هذه الصعوبة ، وأقدم للقارئ قصصاً فيها تاريخ لمن يحب التاريخ ، وفيها فن وأدب لمن لا يحب التاريخ .

وإنى لأرجو أن أكون قد أدت واجباً نحو الثقافة العربية ، وسأهت بنصيب فى إحياء الأدب العربى ، فقد أخذنا نحن العرب نسير فى موابك العالم الحديث متعاونين ، ونحذو حذو الأمم الناهضة ، ونهتج نهجها فيما شيدت به مجدها ، ورفعت عليه بنيانها .

وفى ماضى الأمة العربية ما ينبغى أن يكون دعامة للحاضرها ونبراساً لنهضتها الجديدة ، وصلة باقية بينها وبين أسلافها الأجداد . ولا ضير أن يكون فى حياة هؤلاء الأسلاف هِئاتٌ وعيوب ، إلى جانب ما كان لهم من مجد خالد فى تاريخ الشعوب ، فالفنا لنا من هِئاتهم عبرة ، ومن همتهم حافزاً يدفعنا على الدوام إلى طلب المجد .

طاهر الطناحى

مِيلاد دَوْلَة

هذه القصة تصور نوازع النفس الإنسانية
في طلب الملك والسلطان وتدور حول الصراع
بين مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وأبي
العباس عبد الله ابن محمد . وهو الصراع الذي
انتهى بمقتل الأول ، والمنشادة بالثاني أول
خليفة لبني العباس سنة ١٣٢ هـ .

انهزم الليل ، ومروان بن محمد على « نهر دجلة » مهزوماً أمام جيوش
أبي العباس . وقد غرق عدد كبير من قواده وجنده ، وانفض عنه كثير من
أنصاره وصحبه ، ويئس من النصر ، وأعوزته القدرة على استئناف القتال ،
وأيقن أنه لا ريب هالك إن لم يفرّ بمن معه إلى بلد آخر ، ويعسكر في
أرض أخرى ، فأعانه ما بقي من الظلام على الفرار ، وكان شديداً على نفسه
وهو خليفة الأمويين ، وأمير المؤمنين أن يفرّ أمام العباسيين الذين كانوا
بالأمر مستضعفين في الأرض يسومهم سوء العذاب ، ويناهض دعوتهم
ويقتل دعائهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولكنه كان بين اثنين
أحلاهما هو الفرار المرير إلى « حرّان ^(١) » ، ففر إليها ، وفيها من رجاله

(١) بلدة في شمال الجزيرة .

كثيرون فلاحقت به جيوش أبي العباس في عُدَّةٍ ضخمة ، وعدد عظيم ،
وقد استفحل أمرها وازدادت قدرتها ، وعظم خطرهما ، ونظر مروان ، فرأى
نفسه أقل شأنًا ، وأضعف جندًا ، فانسحب بمن معه ، وأسرع في الفرار ،
وأسرع العباسيون وراءه حتى اجتاز فلسطين إلى مصر ، ووصل إلى الجيزة
وعسكر حول قرية « بوصير » .

وما كاد يخندق بها حتى أقبل جيش « صالح بن علي » عم أبي العباس ،
وحاصره في هذا المكان ، وكانت المعركة الفاصلة . فأحرق مروان ما معه من
علف وطعام وخيام ، وأخفى بناته ونساءه في كنيسة ، وأوصى بهن غلامًا
من غلمانه ، وعبأ جنده ثم قال لهم :

— أيها الرجال إن الجزع لا يزيد في الأجل ، وإن الصبر لا ينقص
من الأمل . وها هو العدو أمامكم ، فإما النصر ؛ أو الموت كرامًا .

وخرج بمن معه ، فلما رأى كثرة العباسيين ، كسر غمد سيفه ، وحمل
عليهم ، فكسروا أغمد سيوفهم وحملوا عليه ، وتلاقى الرجال بالرجال ،
وتكسرت النصال على النصال ونزل « مروان » عن جواده ، فوثب إليه
رجل من أعدائه فأخذه ، فقال له في أشفاق :

« أكرمه ، فإنه أشقر مروان » .

وحمل وطيس القتال ، وانبرى القائد عامر بن إسماعيل لمروان بن محمد

فقطعنه طعنة أصابت منه مقتلاً ، فخر صريعاً ، واندحر الأمويون ، وقتل

أكثرهم ، وفر من نجاهائماً على وجهه إلى السودان وبلاد الأحباش .

ودخل الكنيسة عامر بن إسماعيل بعد المعركة وقد وهن الليل وانجابت جيوش ظلامه ، فإذا بـغلام مروان شاهـر السيف يحاول الدخول إلى بناته ونسائه — وكن بها مخـتفيات — فاستوقفه عامر ، وسأله : من أنت ، وماذا تصنع ، وإلى أين ؟

فأجاب الغلام : أنا مولى مروان ، أوصاني سيدي إذا هو قتل أن أدخل إلى بناته ونسائه بالكنيسة فأضرب أعناقهن . . . !

فقال عامر : بل نحن نضرب عنقك . . . ؟

وأمر من معه بقتله ، فصاح :

— دعوني ، ولا تقتلوني ، فإنكم إن قتلتموني فقدتم والله ميراث رسول الله ، وشعار خلفائه

فقال عامر لأصحابه : خلوا عنه ، ولا تقتلوه . وسننظر ما يقول . . ؟

قال الغلام : إن كذبت فاقتلوني . . . هلموا فاتبعوني . . .

فخرجوا من الكنيسة وتبعوه ، فكشف لهم موضعاً بين الرمال فإذا فيه شعار الخلافة « البردة والقضيب والخصر » قد دفنها مروان بن محمد حتى لا تؤول لبني العباس ، فأخذها عامر بن إسماعيل ، ثم عاد إلى الكنيسة ، فوجد بها متاع مروان وبناته ونسائه ، فجلس على أريكة كانت مفروشة له ، وأكل من طعامه فخرجت إليه « أم مروان » ابنة مروان الكبرى فقالت :

— يا عامر إن دهرآ أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليه ،

فاحتويت مجلسه ، وأكلت طعامه ، وغلبت على أمره ، لقادر أن ينزلك
هذا المنزل ، ويغير ما بك . . .

فلم يجبها عامر ، ومضى في طعامه وشرابه في نهم ولذة ، وهو يتمتم :
— دهيد يا جوانكان . . . دهيد يا جوانكان^(١) .

وهو ما كان يضيح به حينما قتل مروان في المعركة . ثم نهض ممتلئاً
وحمل البردة والقضيب والمخصر ، وساق بنات مروان ونساءه إلى قائد
جيش العباسيين بمصر « صالح بن علي » ، فلما دخلن عليه تكلمت
أم مروان ، فقالت :

— يا عم أمير المؤمنين . حفظ الله لك في الدنيا والآخرة نحن بناتك
وبنات أخيك ، فليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا . . .
فأجاب صالح :

— إذن والله لا نستبقى من بنى أمية أحداً ، رجلاً ولا امرأة ،
فقد حكتم فينا ألف شهر ، واقتزتم من الآثام ما تلحقكم سُبُته
آلاف الأعوام .

فقالت أم مروان : يا عم أمير المؤمنين وليسعنا عفوك . . .
فقال صالح : ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى إبراهيم بن محمد
« الإمام » في محبسه بجران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك ، زيد بن علي

(١) هذه عبارة إيرانية . ومعنى « دهيد » أعطوا . و « يا جوانكان »
يا شباب . والكاف تنطق جيا .

ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ويصلبه في كناسة الكوفة ، ويقتل امرأته بالحيرة على يدي يوسف بن عمرو الثقفي ؟ . ألم يقتل الوليد بن يزيد ، يحيى بن زيد ويصلبه بخراسان ؟ . ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعي ، مسلمة بن عقيل بن أبي طالب بالكوفة ؟ ؟ . . .

فقلت : يا عم أمير المؤمنين ، وليسعنا عفوك .

فقال : ألم يقتل يزيد بن معاوية « الحسين بن علي » على يدي عمرو ابن سعيد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ . ألم يخرج بحرم رسول الله (ص) سبايا حتى ورد بهن على يزيد ، كما يرد بنساء الكفار . . .

فقلت : يا عم أمير المؤمنين وليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا . . .

قال : ألم يبعث عمرو بن سعيد برأس الحسين إلى يزيد بن معاوية على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنهما حتى قدموا دمشق ، كأنما بعث برأس رجل من أهل الشرك . . . فماذا أبقيتُم يا بني أمية ؟ ! . . .

فقلت أم مروان : يا عم أمير المؤمنين ، هذه جريرة أسلافنا . . .

قال : ألم يوقف يزيد بن معاوية حرم رسول الله (ص) موقف السبي يتصفحن جنود أهل الشام الجفافة الطعام ، فيطلبوا منه أن يهب لهم حرم رسول الله استخفافاً بحقه صلى الله عليه وسلم ، وجرأة على الله عز وجل وكفراً لأنعمه . فما الذي استبقيتُم منا أهل البيت ؟

فقلت : وليسعنا من عفوك يا عم أمير المؤمنين ما وسعكم من جورنا . . . !

فقال صالح : أما العفو ، فنعم قد وسعكن ، فإن أحببت زوجتك من

ابن الفضل بن صالح وزوجتُ أختك من أخيه عبد الله :

فبكت وانتحبت ، وقالت له :

— يا عم ، وأى أوان عُرس هذا ؟ ! بل تُلحقنا بحرّان نأوى فيها
إلى دارنا . . .

فقال : إذن تذهبن إلى حرّان . . .

ونَهَضت بنات مروان ونساؤه للخروج ، فاذا بسليمان بن هشام بن
عبد الملك (بن عم مروان) ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد يدخلان على
صالح وهما يحملان رأس مروان ، فأعوان بالبكاء وقلن :
— وأنت أيضاً ياسليمان !

فلما رآهن سليمان اشتد عليه وبكى ، فقال له أبو عون :

— ياسليمان الحمد لله الذى شفى صدرك قبل الموت من مروان . . .

والتفت إليه صالح بن على ، وقال :

— الحمد لله الذى أظفرك به ، ولم يظفره بك . هل لك يا أبا أيوب
أن تذهب إلى أمير المؤمنين أبي العباس بكتابى وبالبردة والقضيب والمخصر ،
وبما هياه الله على يديك وشفى به صدرك ، فيفعل بك خيراً ، ويعرف من
نصحك ما أنت أهله ؟ !

فقبل سليمان بن هشام هذا القول ووقع من نفسه موقعاً ، وخرج إلى
أبي العباس برأس مروان وشعار الخلافة وبعض الأسرى .

وبعث صالح بنات مروان ونسائه إلى « حرّان » فلما دخلنها وجدن

قصرهن قد هدمه عبد الله بن علي السفاح^(١) عم أبي العباس وقائد جيوشه
بالشام وفلسطين ، واحتوى ما فيه من متاع ورياش وأموال ، فعلت
أصواتهن بالبكاء والنحيب . .

كان سليمان بن هشام الأموي موتورا من بني عمه منذ ضربه الوليد
ابن يزيد مائة سوط ، وحلق لحيته ، ونفاه إلى عمان وحبسه بها ، وكان الوليد
صاحب لهُو ومجون ، وقد أفسد على نفسه بني عميه هشام والوليد بن
عبد الملك ، وأحفظ عليه جنده من اليمانيين بانتصاره للنزاريين وعصبيته لهم ،
وكانت اليمانية أكثر جند أهل الشام ، وأشدّهم بأساً . وقد دبت بينهم وبين
النزارية العصبية منذ أثارها الكميّ بن زيد النزارى — بإيعاز من أبناء
أبي طالب .

فقد أتى الكميّ يوماً إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين فأنشده
قصيدة مدح بها أهل البيت ، فلما بلغ فيها قوله :
وقتيّل بالطف غودر منهم بين غوغاء أمة وطغام^(٢)
بكى أبو جعفر ، وقال : يا كميّ لو كان عندنا مال لأعطيناك ، ولكن
لك ما قاله رسول الله (ص) لحسان بن ثابت ، «لا زلت مؤيداً بروح القدس
ما ذبيت عنا أهل البيت» .

(١) لقب السفاح هو لعبد الله بن علي عم أبي العباس (على الأرجح) وليس لأبي العباس
كما ذكر في بعض كتب التاريخ
(٢) الطف موضع بالقرب من الكوفة ، وما أشرف من ريف العراق .

وخرج الكميت فأتى عبد الله بن الحسين بن علي ، فأنشده ، فقال له : يا أبا المستهل أن لي ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار . وهذا كتابها وقد أشهدت لك بذلك ؛ فأبى الكميت .

فقال له عبد الله :

— إن أبيت أن تقبل ؛ وأردت عوننا فقل شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها ما يعجل بعدونا .

فقال الكميت قصيدته التي فضل فيها نزاراً على قحطان ، وأغضب بها اليمانية ومطلعها :

ألا حيت عنا يا مديناً وهل ناسٌ تقول مسامينا
فرد عليه دعبل بن علي الخزاعي بقصيدته التي مطلعها :

أفيق من ملامك يا طعينها كفاك اللوم مرُّ الأربعينا

فكان ذلك سبب قيام العصبية بين النزاريين واليمانيين . وهي العصبية التي انحاز فيها الوليد بن يزيد ومروان بن محمد إلى قومهما بنى نزار وأنكرها سليمان بن هشام وانضم للخوارج ثم لجيوش العباسيين وقد استغلها العباسيون استغلالاً سياسياً وحربياً في تفريق جند بنى أمية وتمزيق شملهم والقضاء على دولتهم .

* * *

وقد كانت أيام مروان بن محمد أيام فتن وحروب بينه وبين سليمان بن

هشام ، وبينه وبين الخوارج ، وبينه وبين اليمانية ، وبينه وبين جيوش
العباسيين .

ورأى العباسيون أن الفرصة مؤاتية ، وأن الوقت آن لظهورهم وقد
أضعفت الفتن بني أمية ، وانتهكت الثورات والحروب مروان . وكانت
الشيعة قد بايعت محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن الحنفية على
طلب الخلافة بعد تنازل الحسن بن علي عنها لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ
وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقها في ذلك ، فبقي ابن الحنفية إماماً لهم
حتى أدركته الوفاة ، فأوصى بها إلى ابنه عبد الله بن محمد ؛ فبايعته الشيعة
فبلغ سليمان بن عبد الملك — وكان الخليفة في ذلك الحين — فبعث إليه ؛
وأعد له في أفواه الطريق رجلاً معهم أشربة مسمومة ، وأمرهم إذا خرج
من عنده أن يعرضوا عليه الشراب فكان كلما مر بموضع قام إليه رجل
يقول له :

— هل لك في الشراب يا بن بنت رسول الله ؟

فكانت نفسه توجس منهم ، فיאبى قائلاً :

— بارك الله لكم . . .

حتى إذا كان في آخر الطريق خرج إليه رجل من خبائه ، فقال له :

— هل لك في شربة من لبن يا بن بنت رسول الله .

فوقع في نفسه أن اللبن مما لا يسم ، فشرب منه ثم مضى ، فلم يلبث
أن أحس السم يسرى في جسده ، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون »

وطلب أن يذهبوا به إلى « الحميمة » حيث ينزل آل العباس ، فحملوه إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فأخبره ما أصابه وقال له :
— إن مت يا بن عمي ، فاحمل الأمر ، وأطلب الخلافة لأهل بيتك .
وأشهد على ذلك جمعاً من الشيعة ، ثم مات .

وكانت سنة مائة من الهجرة ، فكان بدء الدعوة لبني العباس ، فبعث محمد بن علي ، بعض أتباعه إلى خراسان ، وأوصاهم بالدعاء لبني العباس من أهل البيت ، فلقوا من لقوا ، وأقاموا بها إثني عشر نقيباً .
وبقي محمد بن علي يبعث من الحميمة إلى خراسان بكتبه ورسله سرّاً ، حتى جاءت الوفاة ، فأوصى إلى ابنه إبراهيم بن محمد بالإمامة من بعده ، فاشتهر « بإبراهيم الإمام » .

حمل إبراهيم دعوة أبيه ، وجعل يكتب نقباءه سرّاً ، حتى نما أمرهم وكثر أنصارهم ، وأشخص أبا^(١) مسلم الخراساني رئيساً عليهم من قبله ، وكان شاباً شجاعاً داهية كيّساً .

فاشتمد على نقباء خراسان أن يولي إبراهيم على شيوخهم شاباً حديث السن ، وجاء النقباء ، في موسم الحج ، فقابلوا إبراهيم الإمام بمكة ، واحتكموا إليه في أمر أبي مسلم ، وتوليته إياه أمانة الشيعة بخراسان مع صغر سنه ... وكان أبو مسلم قد اتصل بمحمد بن علي ، والد « الإمام » يوم كان وكيلاً

(١) في هذا الكتاب قصة عن أبي مسلم بعنوان « قائد العصر الذهبي » .

لإدريس بن إبراهيم الجعلى ، وعرف الإمام ولأهله لبيته ، ووثق
بكياسته وقدرته وحسن دهائه ، فاختره رئيساً للشيعة فى خراسان فلما أقبل
النقباء يحتكمون إليه فى أمره أبى عزله ، وقال لهم :

— من أطاع أبا مسلم ، فقد أطاعنى ، ومن عصاه ، فقد عصانى .

— ثم التفت إلى أبى مسلم ، وقال :

— يا أبا مسلم إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى ، انظر هذا
الحى من اليمين فأكرمهم ، فوالله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى
من ربعة ، فإنهم معهم ، وانظر هذا الحى من مضر ، فإنهم العدو الغريب
الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ، ومن وقع فى نفسك منه تهمة .

فقال أبو مسلم :

— أيها الإمام ، فان وقع فى نفسنا من رجل هو على غير ذلك فهل
نحبسه حتى نستبينه ؟

قال إبراهيم :

— لا . . السيف السيف . . لا تتق العدو بطرف . . وإيما غلام

بلغ خمسة أشبار فاتهمته فاقتله .

وقام إبراهيم فأعطى أبا مسلم لواء يدعى « الظل » وراية تدعى
« السحاب » فعاد أبو مسلم بمن معه إلى خراسان ، ونزل فى قرية
« سفيزنج » وكانت ليلة الخامس من رمضان سنة ١٢٩ فعقد شيعة بنى

العباس لأبي مسلم اللواء على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً ، وعقدوا الراية على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً ، وهم يتلون :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير »
وتأولوا « الظل » بأن الأرض لا تخلو من الظل أبداً ، وكذلك سوف لا تخلو من خليفة عباسي ، وتأولوا « السحاب » بأنه منتشر في الأرض ، وكذلك دعوة بني العباس سوف تنتشر في سائر البلاد .

وكان على خراسان من قبل بني أمية وقتئذ « نصر بن سيار » وكان بطلاً شجاعاً شاعراً ، ولكنه كان مشغولاً بحرب اليمانية والخوارج ، فاستفحل أمر دعاة بني العباس في خراسان ، وعظم شأن أبي مسلم ، فجهز بالدعوة وبعث إلى نصر بن سيار كتاباً يقول فيه :

« من عبد الرحمن بن محمد إلى نصر بن سيار »

« أما بعد ، فإن الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره غير أقواماً في القرآن فقال :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً في الأرض ، ومكر السيئ ، ولا يحقيق المكر السيئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً »

فاشدد هذا الكتاب على نصر، وهاله أن يبدأ أبو مسلم بنفسه ، وقد كان بالأمس يخاطبه بلقب الأمير ، وقال :

— هذا كتاب له جواب . . . !

وبعث مولى له يقال له « يزيد » لمحاربة أبي مسلم ، فهزمه أبو مسلم وأسره ، ثم وجه أبو مسلم جيشاً إلى « مروروز » فاستولى عليها وقتل عامل نصر بن سيار ، فرأى نصر تفاقم الأمر ، ونمو الدعوة العباسية نمواً سريعاً ، فبعث يستنجد مروان بن محمد ويحذره بأبيات منها :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

فكتب إليه مروان يعتذر بما يعانیه من حروب وقتن وثورات .

فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده » .

وخرج بمن معه من « مرو » إلى نيسابور هارباً من جيوش أبي مسلم ، فاتبعه ، ففر إلى جرجان ، فسار وراءه ، فخرج منها إلى الري ، ثم إلى ساوة بالقرب من همدان فمضى بها ، ومات كمدأ .

وكان إبراهيم الإمام يكتب أبا مسلم الخراساني ، ويوجه إليه بأوامره ، وارشاداته مع رسله ، وكان أبو مسلم يبعث إليه سرّاً بأنباء ظفّره وما باغّه من نجاح دعوته ، فوكل مروان بن محمد عيوناً بالطرق ، فقبضوا على رسول أتى من قبل أبي مسلم إلى إبراهيم بكتاب يخبره فيه بما آل إليه

أمره ، فأتوا به إلى مروان ، فتناول الكتاب وقرأه ، ثم رده إلى الرسول ، وقال :

— لا تخف . كم دفع لك صاحبك ؟
فقال الرسول : « كذا وكذا درهمًا . . »

فقال له مروان :

— هذه عشرة آلاف درهم لك ، وأمض بكتابك إلى إبراهيم ولا تخبره شيئًا مما جرى وخذ جوابه واثنتي به .

ففعل الرسول وعاد بجواب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره بالجد والاجتهاد ، فقرأه مروان ، واحتبس الرسول ثم أرسل إلى عامل البلقاء أن أذهب إلى « الحيمة » واثنتي بإبراهيم بن محمد موثقًا في حبل كثيف ، ففعل .

وجيء بإبراهيم بين يدي مروان ، فسأله عن الكتاب والرسول ، فأنكر فأخرجهما مروان له قائلًا :

— يا منافق . . أليس هذا كتابك وهذا رسولك . !

وأغلظ له القول ، فأجاب إبراهيم بمثل قوله ، وقال له :

— يا مروان ما أظن الناس يرون منك حقًا في بغض بني هاشم .
فقال مروان :

— أذكرك الله بأعمالك يا منافق . . إذهبوا به إلى السجن فان الله

لا يأخذ عبدًا عند أول ذنب . . إذهبوا به مذمومًا . .

فدفعوه في سجن حرّان ، وكان فيه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ،
والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ظفر بهما مروان ، فبقى
معهما سجيناً .

ثم بعث إليه من قتلوه في السجن ليلاً .

بلغ آل العباس بالحمية قتل عميدهم إبراهيم الإمام ، فخافوا نعمة مروان
وخرج بهم كبيرهم « أبو العباس عبد الله بن محمد » إلى العراق ، وكان
أخوه قد أوصى إليه بعده ، فلما وصل الكوفة وجد جيوش أبي مسلم قد
دخلت العراق ، وغلبت عامله وأقامت حفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال)
على الكوفة في المحرم سنة ١٣٢ وسموه « وزير آل محمد » إذ كان من
قبل كاتباً لإبراهيم الإمام .

ولما وصل أبو العباس وآله الكوفة أنزلهم أبو سلمة في دار آمنة ،
وكتب أمرهم نحو شهرين ، ثم ظهر للناس أبو العباس ، فبايعوه بالخلافة في
ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ .

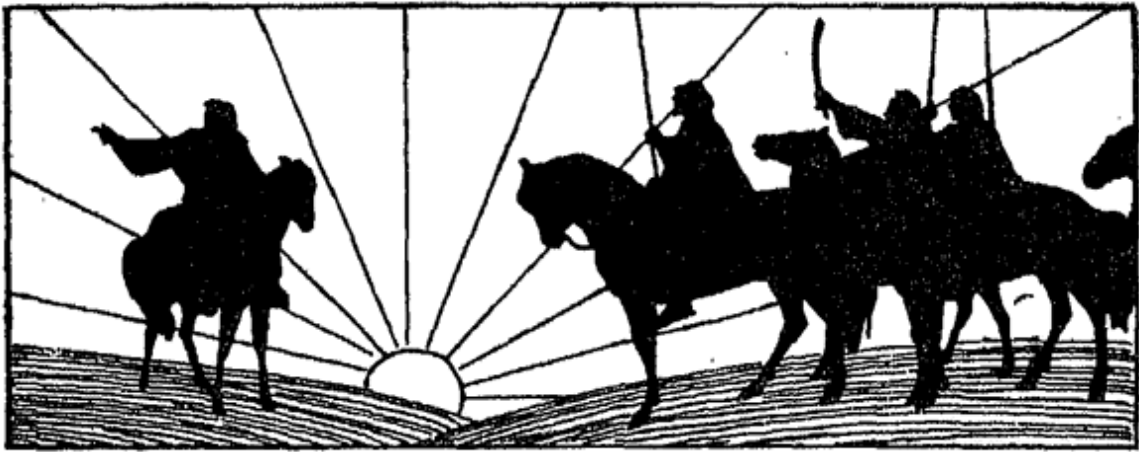
وبلغ مروان مبايعة أبي العباس ، فأقبل بجيشه حتى نزل على نهر
دجلة بالموصل وحفر خندقاً ، فبعث إليه أبو العباس بجيش على رأسه عمه
عبد الله بن علي ، ومعه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فانهزم مروان
على نهر الزاب وغرق كثير من جنده وأصحابه ، ففر إلى حرّان ،
فأقام بها عشرين يوماً ونيفاً ، حتى دنا منه عبد الله بن علي فرحل بأهله

وما بقي من جنده إلى قنسرين ومنها إلى حصص ، ثم إلى دمشق ، فأتبعه عبد الله ، ففر منها إلى الأردن ، ودخل عبد الله بن علي بجيشه دمشق الشام ، فقتل عاملها الوليد بن معاوية واستولى عليها ثم اتجه إلى الأردن ، فخرج منه مروان إلى فلسطين فأتبعه عبد الله ، فرحل مروان من فلسطين إلى مصر ، فوجد أكثر أهلها قد اعتنقوا الدعوة العباسية ، فأنحاز إلى الجيزة ، وأحرق الجسرين والدار المذهبة التي بناها عبد العزيز بن مروان ونزل بمن معه قرية بوصير ، فبعث إليه عبد الله أخاه صالح بن علي ومعه سليمان بن هشام وعامر بن اسماعيل في جيش لمحاربتهم بمصر ، فدخلوها ورحب بهم كثير من أهلها ، فالتقى بهم مروان على النيل ، ونشب القتال بين الجيشين طول اليوم فانهزم مروان وقتل في المعركة

ودخل الكنيسة عامر بن اسماعيل بعد المعركة ، فإذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول إلى بنات مروان ونسائه ليضرب أعناقهن كما أوصاه بذلك سيده . . .

وهمَّ عامر بقتله ، فقال الخادم : « دعوني ولا تقتلوني . . » ودله على ميراث رسول الله « وشعار خلفائه . . وساق بنات مروان ونسائه إلى صالح بن علي . . فوسعهن بعفوه ، وبعث بهن إلى « حرّان » فلما دخلنها علت أصواتهن بالبكاء والنحيب . . .

وقدم سليمان بن هشام ويزيد بن هانيء إلى « أبي العباس^(١) »
ومعهما رأس مروان والبردة والقضيب والخنصر ، فلما وضعت الرأس بين
يديه سجد وأطال السجود ثم نهض ، فنظر إلى رأس مروان وقال :
— الحمد لله الذي لم يُبق ثأري قبلك ، وقبل رهطك . الحمد لله الذي
أظهرني بك ، وأظهرني عليك . . ما أبالي والله متى طرقتني الموت . . !
وبذلك ولدت دولة بني العباس ، وبدأت مرحلة جديدة في
تاريخ الإسلام .



(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب
تولى الخلافة في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ وكانت خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر
وقد بنى مدينة الأنبار على نهر الفرات ، ودفن بها في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ
وهو ابن ثلاث وثمانين سنة ، وكان جميل الوجه أبيض طويلاً .

النساء

وقعت حوادث هذه القصة في قصر الخليفة
أبي العباس عبد الله بن محمد بمدينة الأنبار .
وهي تصور جانباً من أخلاقه وحياته العائلية
ورأيه في النساء ، كما تصور جانباً من أسلوب
الحياة الاجتماعية في ذلك الحين .

وجلس الخليفة أبو العباس في قصره بالأنبار على ضفاف الفرات ، وأطل
على مياهه الفضية الجارية ، وفوقها الجوارى الأعلام ، وقد أخذت
الشمس تغرب في جمال وجلال ، وبسطت أشعتها الذهبية على صفحة الماء .
وفوق المروج الخضراء ، وكأنما نثرت عليها من اللؤلؤ حصباء ، فتلاّلت
وازيّنت ، وازدادت فتنة وسحراً .

ونظر أبو العباس إلى جمال الله في جمال الطبيعة ، وتمثل جلاله في
جلال قدرته ، ورأى عظمته في عظمة خلقه ، فقال :

— سبحانك اللهم لك الملك وحدك لا شريك لك . . !

واشتاق إلى مجالسة أديب أريب . وعأوده الزهد في متاع الدنيا ، وما فيها
من لهو ولذة ، إذ كان عن ذلك مشغولاً بشئون ملكه ، وهموم دولته ، ودعا
بأبي بكر الهذلي ليؤانسّه بخديثه ، فأقبل عليه ، وجعلاً يتحدّثان في قدرة

الله وشئون الدين ، ثم جاء ذكر الدنيا والنساء ، وكان أبو العباس لا يميل إلى مجالستهن كثيراً ، ويؤثر قضاء فراغه في الأدب والعلم والسياسة فقال :
— العجب ممن لا يريد أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً...
— وما تأويل قولك هذا يا أمير المؤمنين . . ؟

قال أبو العباس :

— يترك الرجل مجالسة عاقل أريب ، ويدخل إلى امرأة أوجارية ، فلا يزال يسمع لغواً ، ويشهد لهواً ، ويرى غواية وزخرفاً . . .
فقال أبو بكر :

— أصبت يا أمير المؤمنين ، وبذلك فضلكم الله يا بني هاشم على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين . . .

وعصفت الريح فأذرت تراباً وقطعاً من الحجارة والآجر من سطح الدار إلى المجلس ، ففزع الحاضرون ، وفزع أمير المؤمنين . وأبو بكر الهذلي شاخص نحو أبي العباس لم يتغير كما تغير غيره ، ولم يهرول كما هروا سواه فقال له أبو العباس :

— الله أنت يا أبا بكر . لم أراك اليوم . . . أما راعك ما راعنا ؟ . .
فقال الهذلي :

— إن الله إذا تفرد أحد بكرامته ، وأحب أن يبقى له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبي أو خليفة . وهذه الكرامة قد خُصت بها يا أمير المؤمنين ، فمال إليها قلبي ، وشغل بها فكري ، فلما انقلبت

الخضراء على الغبراء ما شعرتُ بها ، ولا أحسستُ منها فزعاً . . !
فقال أبو العباس :

— أحسنتَ يا أبا بكر ، لئن بقيتُ لك لأرفعنَّ منك وضيعاً لا تُطيف
به السباع ، ولا ينحطُّ عليه العقاب .

ووصله بجائزة سنية ، ثم انفضَّ المجلس ، وانصرف الهذلي ، وما كاد
يبرح دار الخلافة حتى أقبل خالد بن صفوان — وكان أبو العباس قد
بعث في طلبه ، وأعجبه ما سمعه عن بلاغته وحسن مؤانسته ، فلقى الهذلي
فقال له :

— أهلاً بواعظ هشام ، ومسائر الأيام ومشايخ الحكم .

فقال خالد :

ومرحباً بأنيس الإمام ، ومزخرف الكلام ، ومصيب المرام . . .
واستأذن خالد بن صفوان على أبي العباس فأذن له ، فدخل ، فإذا
بالخليفة جالس وحده ، وقد تهياً لحديثه ، واهتم بأمره ، فلما رآه رحب به
وأدناه ، ثم قال له :

— يا خالد قد وعظت هشام بن عبد الملك حتى كدت تخرجه عن
ملكه ، وتلحقه بالزاهدين ، وما أريد أن أتخلى عن أمري ، وقد رفعت
السيوف ، وسقته الدماء . وأرى أن هذا الأمر لا يقوم لبني العباس إن أنا
فرطتُ فيه وانصرفتُ عنه . فما تقول في رجل يتبرم بنفسه ، ويريد
لها مُنفرجاً ؟

فقال خالد :

— يا أمير المؤمنين إني فكرت في أمرك وسعة ملكك ، وتفضيلك
منادمة الرجال على النساء ورأيت أنك قد ملكت نفسك امرأة واحدة ،
تتحكم فيك وأنت الخليفة ، وتفرض إرادتها عليك ، وتحرمك مما أحل الله
لك من مُتَع الدنيا ، ولذات الحياة ، فإن مرضت مرضت وإن غابت عنك
غبت عن النساء ، وصرفت نفسك عن سواها من كرائم الأحرار ،
وكواعب الجوارى ، وما لهن من جمال وفتنة وحياة ناعمة وأحوال ... !

فقال أبو العباس :

— وكيف ذلك يا خالد . . ؟

فقال : إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلةُ الفرعاء ، والدقيقةُ الهيفاء .
والغضةُ البيضاء . والبضةُ السمراء ، من أحرار الشام ومولدات المدينة ،
يفتنن بجمالهن ، ويأسرن بمؤانستهن ويسابن بحديثهن القلوب .

فقال أبو العباس وقد بدا عليه الاهتمام . — إيه يا ابن صفوان . . .

فقال خالد :

— وإن من نساء البصرة وفتيات الكوفة المهففة الغيداء ، والمخضرة
الحسناء ، والرشيقة العيناء ، والقسيمة الدعجاء ، ذوات الألسن العذبة ،
والقدود المستضعفة ، والأعطاف الواهنة المستظرفة .

فقال أبو العباس :

— ايه يابن صفوان . .

قال :

— وإن من الفارسيات النحيفة الخلابه ، والسمينة الجذابة ، واللطيفة
المؤنسة . والرقيقة المبهجة ، ذوات الأعين المكحلة والأصداغ المزرفنة ،
والأزياء الملونة ، والنظرات النافذة الفاتنة .

فقال أبو العباس :

— أحسنت يابن صفوان ، ثم ماذا ؟ . .

فقال خالد :

— وإن من التركيات الغانية الشقراء ، والمليحة الحمراء ، والوضيئة
الرائعة ، والوسيمة البارعة ، والناعمة الناضرة ، والمعطل الساحرة .

فقال أبو العباس :

— أحسنت والله يابن صفوان . . ثم ماذا ؟

قال :

— وأن من المصريات الفارعة النجلاء ، والحريرة اللعساء ، والسمينة
المكتنزة ، والرقيقة المتزنة ، والصبيات الكواعب ، والفتيات الضاحكات
اللواعب ، ذوات اللحاظ السارق ، والإغراء الفائق ، والحب المتأجج الدافق .

فقال أبو العباس :

— ويحك يا خالد . . ما نفذ إلى نفسي كلام أحسن مما سمعته منك
اليوم ، فأعد عليّ كلامك ، فقد وقع مني موقعاً حسناً . . .

فأعاد عليه خالد أحسن مما قاله ، ثم انصرف .

*
* *

انصرف خالد بن صفوان من المجلس وبقى أبو العباس واجماً مفكراً
فيما سمع ، ومرت مدة زادته وجوماً وتفكيراً ، ودخلت عليه زوجته أم
سلمة المخزومية ، فوجدته في هذه الحال ، فقالت له :

— مالك يا أمير المؤمنين ؟ هل حدث أمر تكرهه ، أو أذاك نبأ
ارتعت له ؟

قال :

— لم يكن من ذلك شيء . . .

— إذن فقيم تفكر ، وماذا يهملك ؟

فسكت أبو العباس ، وجعل ينزوي عنها ، فألحَّت عليه ، فأعرض ،
فازدادت إلحاحاً ، ولم تزل به حتى أفضى إليها بما قاله خالد بن صفوان ،
فقالت :

— وماذا قلت لابن الفاعلة ؟

قال :

— سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟ ! . .

قالت :

— أو تظنها نصيحة ؟ . .

قال :

— نعم . .

فصاحت أم سلمه :

— أوه . . أو لم تقسم لى ألا تنظر إلى سواى ولا تقرب غيرى ؟ . .
وخرجت باكية مفضبة . .

كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة الخزومى هى الزوجة الوحيدة التى
اصطفاهَا أبو العباس لنفسه واصطفته لنفسها قبل أن يتولى الخلافة ، وقد
كانت زوجة لهشام بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ثم مات عنها
فبينما هى ذات يوم إذ مر ببابها أبو العباس ، وكان شاباً جميل الوجه ،
طويل القامة ، وسيم الطلعة ، فسألت عنه ، فنُسب لها ، فأرسلت إليه
مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، فقال لها :

— أنا مملق لا مال عندى ، فلا أستطيع الزواج .

فبعثت إليه بسبعمئة دينار ، وأوعزت له أن يتقدم بخطبتها إلى
أخيها ، فقبل أبو العباس وأسرع ، فقدم له خمسمئة دينار مهرأ لها ،
وبعث إليها هدايا بمائتى دينار ، وتزوجها وحظيت عنده ، وأقسم لها
ألا يتزوج سواها ، ولا يتسرى ولا يقرب جارية أو حرة غيرها ، فولدت
منه محمداً وريلة ، وغلبت عليه غلبة شديدة ، فصار لا يقطع أمراً
إلا بمشورتها ، ولا يأتى شيئاً إلا إذا رجع إليها حتى أصبحت ، قبل
الخلافة سيدة الأسرة ، وبعد الخلافة سيدة الدولة .

وكانت أم سلمة تعرف خالد بن صفوان منذ كانت زوجة لهشام بن عبد الملك ، وكانت تنكر عليه إغراءه لهشام ، وتقربه منه طمعاً في أعطيته ، وقد نمت منه ما أراد به زوجها من الخروج عن الخلافة والزهد في الحياة ، والانقطاع إلى العبادة ، فقد حضر خالد مجلس هشام بن عبد الملك يوماً فقال له هشام :

— حدثني يا بن صفوان من أخبارك .

فقال خالد :

— إني لا أجد شيئاً أبلغ من ذكر قصة ملك خلا من الملوك ، فإن أذن أمير المؤمنين أكرمه الله حدثته . .

فقال هشام :

— هات يا بن صفوان . .

فقال :

— كان فيما خلا من الزمان ملك بسط الله له في الجسم والمال ، فخرج ذات يوم متنزهاً إلى بعض ضياعه ، وصعد جوسقاً له ، فأشرف على أرض قد أخضلها ربيع ضاحك كان شبيهاً بربيع عهدك هذا يا أمير المؤمنين في خصبه وغشبه ، وكثرة رخائه وخيره ، وابتسام أزهاره ، وحلاوة مطلعته وحسن بره ، فنظر إلى ما أعطاه الله من الضياع والأموال والمتاع ثم قال لمن جوله :

— لمن كل هذا ؟

فأجابوا :

— لك أيها الملك . . !

فقال :

— هل رأيتم مثل ما أنا فيه ، وهل أوتي أحد أحسن مما أوتيته ؟ . .

فأجابه رجل من أهل العلم والحكمة :

— أرايت أيها الملك هذا الذى أعجبك ، وعظم به كبرك . . هو

شئ كان لك ولم يكن لغيرك ؟ . . أو هو كان لغيرك فزال عنه إليك ،

ثم هو سائر إلى سواك كما صار إليك ؟ !

قال الملك :

— بل هو كما ظننت ومثلت . .

فقال الحكيم :

— فإنى أراك أعجبت بما يفنى ، وزهدت فيما يبقى ، وسررت بالقليل

قال الملك :

— ويحك . . فكيف المطلب وأين المهرب ؟

قال الحكيم :

— إحدى خصلتين ، إما أن تقيم فى ملكك تعمل بطاعة ربك على

ما ساءك وسرك ، وإما أن تضع تاجك ، وتذكر ذنوبك ، وتلتحق

بالخلاء فتعبد الله حتى يوافيك أجلك فتظفر بما يصغر دونه ملك الدنيا .

فقال الملك :

— سأرجع إلى نفسي في الاختيار .

وكان اليوم التالي ، فوضع الملك تاجه ، ولبس أطماره ، ولحق بالجليل . . .

فلما سمع هشام بن عبد الملك هذه القصة من خالد نكس رأسه طويلاً وبقي مفكراً مغموماً ، ودخل على زوجته أم سلمة ، فقالت له :

— مالى أراك مفكراً مغموماً يا أمير المؤمنين ؟

فسكت وأبى أن يخبرها ما فى نفسه ، فألحت عليه ، فأخبرها ما قاله خالد بن صفوان ، فبعثت إليه تقول :

— يا بن الفاعلة ، أفسدت على أمير المؤمنين لذته ، ونفصت عليه شهوته ، وزهدته فى متاع الدنيا ونعيم الملك .
فأجاب الرسول :

— قل لأم سلمة ، ما أردت إلا خيره ، فإنى عاهدت الله ألا أخلو إلى خليفة أو ملك إلا نهته ونصحته . . !

وتوفى هشام بن عبد الملك ، وانتقلت أم سلمة بعده إلى أبى العباس ، وانتقلت الخلافة إليه ، وأصبحت زوجة خليفة عباسى ، بعد ما كانت زوجة خليفة أموى ، وصار لها عند أبى العباس الحظوة الكبرى ، والمكانة العظمى ، وكان يتفائل بها ، ويستمتع لأرائها كثيراً على الرغم من سوء ظنه بالنساء ورأيه فيهن ، وانصرافه عنهن ، وتفضيله مجالس الرجال .

وانتقل خالد بن صفوان مع الأيام ، فصار جليسا لأبي العباس كما كان نديما لهشام بن عبد الملك . وبعث أبو العباس في طلبه ، فحضر إليه وجعل يصف له محاسن النساء ، ويروي له أوصاف العربيات والفارسيات والتركيات والمصريات ، وأبو العباس يستزيده حتى قضى في ذلك وقتا ، ثم نهض منصرفا ، فبقى الخليفة مكتئبا مهموما ودخلت عليه أم سلمة فرأته في هذه الحال ، فسألته وألحت في سؤالها حتى أنبأها ما قاله خالد وما قدم إليه من نصيحة ، فقالت في دهشة وجزع :

— أو تظنها نصيحة . . ؟ !

وخرجت باكية مغضبة حاقدة . . . وكان خالد بن صفوان قد خرج من مجلس أبي العباس مسرورا مبتهجا بما أدخله على نفس الخليفة من البهجة والانشراح ، وما رأى من استحسانه لقوله ، وإعجابه بوصفه ، وبينما كان جالسا في داره إذ جاءته غلمان أم سلمة ، فظن أن جائزة سنوية مقبلة عليه من أمير المؤمنين فأسرع لاستقبال الغلمان ، فقالوا في اهتمام :

— أين خالد بن صفوان ؟

فأجاب :

— هانذا خالد . . .

فما كاد يتم قوله ، حتى سبق إليه أحدهم بهراوة ، فضربه ضربة قوية ، فوثب خالد صائحا هاربا إلى داخل داره وأغلق بابه ، وامتنع عليهم ، ومكث أياما لا يخرج منها ، وطلبه أبو العباس مرارا فلم يذهب ، فبعث

إليه من جنده رجالاً اقتحموا داره ودخلوا عليه في مخدعه ، ففزع لمرآهم
وظن أنهم قاتلوه ، فقالوا له :

— لا تخف ، نحن رُسُلُ أمير المؤمنين ، أمرنا أن ندعوك إليه .
فنهض متوجساً ، وذهب معهم ، فلما دخل على أبي العباس رحب به وأذن
له بالجلوس ، فنظر خالد فإذا باب عليه ستور قد أرخيت ، وحركة خلفه
فأيقن أنها أم سلمة وجواريتها .
فقال أبو العباس :

— يا خالد لم أرك منذ أيام ، فما منعك ؟ . .

— كنت عليلاً يا أمير المؤمنين .

— لا ، وشفاك الله . . .

ثم قال أبو العباس :

— يا ابن صفوان قد رويت لي من أوصاف النساء ما أحببته وما لم
يطرق مسمعى قط ، فأعده عليّ فأنى إليه مشوق .
فقال خالد وهو خائف يترقب :

— نعم يا أمير المؤمنين ، قد رويت لك أن العرب اشتقت اسم
« الضرة » من الضر ، لأنها تضر سواها ، وتتعب زوجها . وأن الرجل
ما تزوج غير واحدة حتى كان في جهد وجهاد ، وهموم شداد .
قال أبو العباس :

— ويحك لم يكن هذا في الحديث . . !

فقال خالد :

— بلى يا أمير المؤمنين . وأخبرتكَ أن الثلاث من النساء كأثافي القدر
يغلى عليهن ويشقى بكيدهن . . . !

قال أبو العباس :

— برئتُ من قرابتى برسول الله إن كنت سمعت هذا منك . . . !

فقال خالد :

— وأخبرتكَ أن الأربع من النساء شرٌّ وبلاء لصاحبهن ، يشيبنه ،
ويسقمنه ، ويهرمنه ، ويدفنه حيا . . . !

قال أبو العباس :

— ويلك . . . وتكذبنى أيضاً . !

فقال خالد :

— وتريد قتلى يا أمير المؤمنين ! . . .

فابتسم أبو العباس ، وقال : — لا . واستمر في حديثك . . .

قال :

— وأخبرتكَ أن أبكار الجوارى الحسان رجال في أزياء نساء . . . !

فضحك أبو العباس ، وضحكت من كن خلف الستور ضحكا سمع
بالجلس . . . !

ثم قال خالد :

— نعم ، وأخبرتكَ أن بنى مخزوم ريحانة قریش ، وأنت عندك ريحانة

ما مثلها ريحانة من الرياحين ، وتطمع يا أمير المؤمنين في أحرار النساء
وغيرهن من الإماء ؟ ! ..

فقل له من وراء الستور :

— صدقت يا خالد والله وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ،

وقد نسيه ! ..

فصاح أبو العباس في خالد :

— قم قاتلك الله ، وأخزأك ، وفعل بك وفعل ...

فقام خالد مهزولاً ، وقد أيقن بالحياة ... وما كاد يستقر في داره
حتى لحق به رسل أم سامة الخزومية ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت ،
وبرذون ، فقدموها له هدية منها ، وهم يقولون :

— هذا جزاء (صدقك) ... وإياك وأوصاف النساء ... !



الشاعر

هذه قصة شاعر كبير من مشاهير الشعراء
العباسيين هو أبو دلامة زندي بن الجون وهي
تكشف عن نواح طريفة من حياته ، كما
تريك لونا من الأدب والفكاهة وجانباً من
تاريخ الحرب والسياسة في هذه الدولة .

توفي أبو العباس عبد الله بن محمد أول خلفاء العباسيين ، وتولى الخلافة
بعده أبو جعفر المنصور^(١) ، ووفد الناس على الخليفة القائم يعزونه في
الخليفة الراحل ، ودخل الشاعر أبو دلامة^(٢) زندي بن الجون فيمن دخل ،
واستأذن المنصور في إنشاد قصيدة رثى بها أبا العباس وعدد فيها مناقبه ، فأذن
له ، واستمع إليه ، حتى قال أبو دلامة :

مات الندى إذ مت يا بن محمد فجعلته لك في الشراء عديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم فوجدتُ أسمح من سألتُ بخيلا
فتغير وجه المنصور ، وقال في غضب :

(١) أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس تولى الخلافة يوم ١٢ ذى الحجة سنة
١٣٦ هـ وعمره ٤١ سنة . وتوفي بمكة ودفن بها يوم ٦ ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ وهو
ابن ٦٣ سنة .

(٢) أبو دلامة كوفي المنشأ وكفى كذلك لأن له ولداً يدعى دلامة وقيل كان بمكة جبل يدعى
أبو دلامة فكفى به وكان شاعراً لأبي العباس ، والمنصور والمهدى . ومات سنة ١٦١ هـ .

— وماذا أبقيت بعد ذلك . . . لئن سمعتك تنشد هذه القصيدة
لأقطعن والله لسانك . . !

فقال أبو دلامة :

— يا أمير المؤمنين . أن أخاك أبا العباس كان لي مُكرِماً . وقد جاء
بي من البدو ، فقربنى ، ورفع شأنى . فلما مات غلبنى على صبرى ،
وسلبنى عزيمتى ، فنظمت مالم أتأمله ، وقلت مالم أفعله . فلوشئت أقلتني
بغفوك ، وأنهضتني بفضلك ، وتعمدتني بحلمك ، وقلت كما قال يوسف :
« لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

— قد أقلناك أبا دلامة ، فأنصرف . غفر الله لك

فطوى أبو دلامة قصيدته ووقف ولم ينصرف ، فقال له المنصور :

— هل من حاجة تريدها ؟

— نعم يا أمير المؤمنين ، فقد كان أبو العباس وهو مريض أمر لي
بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً ، وتوفى ولم أقبضها . . !

فدهش المنصور لجرأته على ذلك ، وسأله :

— ومن يعرف هذا الدين يا أبا دلامة ؟ . . .

— هؤلاء يا أمير المؤمنين ، يعرفون ، وأظنهم لا يجحدون . . !

وأشار إلى جماعة من الحاضرين ، فنهض بعضهم ، وقالوا :

— صدق أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور لخازنه ، وهو مغیظ :

— يا سليمان ادفعها إليه ، ثم سيّره مع جيشنا في حرب الطاغية

السفاح عبد الله^(١) بن علي . وإياك أن يقعد دونها ، أو يتخلف عن العسكر
فوثب أبو دلامة ، وتعلق بأذنيه ، وقال :

— إني أعيذك يا أمير المؤمنين أن أخرج مع جيشك ، فوالله إني
لمشؤم ، وأخشى أن يمس العسكر شؤمي . !

— أمض يا هذا كما أمرت فإن يمني يغلب شؤمك ، وطالع سعدى
يدفع نحسك . . .

— ما أحب لك يا أمير المؤمنين أن تجرب هذه التجربة ، فإني
لا أدرى أيهما يغلب ويدفع : أيمنك أم شؤمي ، وسعدك أم نحسي ؟
— إني لا أخشى شيئاً ، فامض لسبيلك مع الجند .

— ولكني يا أمير المؤمنين بنفسى أوثق ، وأطول تجربة . وأن اسمي
يحمل شؤم هذا الجبل المسمى به في مكة ، وكانت آباؤنا في الجاهلية تمتد
فيه البنات .

— دعني من هذا ، فما لك من الخروج بُدّ . . .

— إني أصدقك الآن يا أمير المؤمنين ، فقد شهدت تسعة عشر جيشاً
كلها هزمت بشؤمي ، فإن شئت — على بصيرة — أن يكون عسكرك
العشرين ، فافعل . . .

فضحك أبو جعفر المنصور ، واستغرب في الضحك ، ولكنه عاد
فقال له :

(١) كان عبد الله بن علي عم أبي جعفر المنصور قد خرج عليه ، وأخذ يدعو
لنفسه بالخلافة

— لا بد لك من الخروج ، فإن عصيت أمرى ضربت عنقك . . .

حمل أبو دلامة النقود والثياب ، وذهب إلى أهله ، فدفعها إليهم وودعهم وهو كئيب حزين وكان عبد الله^(١) بن علي قد ولاه أبو العباس قبل وفاته بلاد الشام سنة ١٣٥ هـ ، فلما توفي وتولى الخلافة أبو جعفر المنصور ، طمع عبد الله في الخلافة ، وخلع ابن أخيه وبايع لنفسه ، فأرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني . فقصده إليه من مدينة الأنبار على نهر الفرات ، وخرج عبد الله بجيشه إلى نصيبين وخندق فيها . فنزل أبو مسلم في موضع آخر ، وتظاهر بأنه لا يريد لقاءه ، ولا يطلب قتاله ، وأرسل إليه رسولا يقول له في مكر ودهاء :

— إني لم أؤمر بقتالك ، ولكن أمير المؤمنين ولاني بلاد الشام .
وإني أريدها ، ومالي عندك من شيء .
فقال أصحاب عبد الله :

— كيف نقيم معك يا عبد الله ، وهذا يأتي بلادنا ، وفيها حرمانا ،
فيقتل من قدر عليه من رجالنا ، ويسبي نساءنا وأبناءنا ، ولكننا نعود
إلى الشام ، فنمنعه ذلك .
فقال عبد الله :

— إنها الخديعة . . والله ما يريد أبو مسلم الشام ، وإنما يريدنا ،
وما وجه إلا لقتالكم . . .

(١) هو الملقب بالسفاح على الأرجح . وليس أبو العباس أول خلفاء العباسيين ،
صاحب هذا اللقب .

فرفضوا وأبوا إلا المسير إلى الشام ، وتركوا موضعهم وخنادقهم ،
وجاء أبو مسلم فنزل فيها ، فلما علم عبد الله قال لأصحابه :

— ألم أقل لكم إنه يريدنا ، ولا يريد الشام ؟ ...

وعاد معهم إلى أبي مسلم ، فوجده قد امتلك زمام المعركة ، وأصبح
سيد الميدان . وبدأ القتال بين الفريقين ، وتنازلت الفرسان ، والتحم
الجيشان ، واشتجرت الهيجاء ، واستعرت الغبراء . ورأى أبو دلامة
كيف تفعل الأسنة والنبال بنفوس الرجال ، فتفترس الآمال . فأجفل
وتوارى ، وراه أحد أمراء الجيش ، فدعاه لمبارزة فارس من جيش
عبد الله ، فاعتذر ، فألح عليه وهدده ، فقال :

— إني أنشدك الله أيها الأمير في دمي ...

— والله لتخرجن اليوم إليه ، أو لأقتلنك ...

— أيها الأمير إنه أول يوم لي من الآخرة ، وآخر يوم لي من الدنيا .

وما أحسب أني راجع ...

— أتجنين يا أبا دلامة عن القتال ، وتخشى الموت ؟ ...

— كلا أيها الأمير ، فما أنا بالجبان ، ولا أخشى الموت أبداً ..

— إذن ، فعلام تقعد عن المبارزة ؟

— إني جائع أيها الأمير ما شبت مني جارحة ، ولا أريد أن أنازل

هذا الفارس وأنا على هذه الحال ، فمر لي بشيء آكله ، ثم أخرج إليه !

فأمر له أمير الجيش برغيفين ودجاجة ، فأخذ ذلك ، وبرز في الصف .

فلما رآه الفارس الخارجى أقبل نحوه ، وتقدم لمبارزته ، فقال له أبو دلامة :

— على رسلك يا هذا . . . كما أنت . . .

فوقف الخارجى ، فقال له أبو دلامة :

— أتقتل يا هذا من لا يقاتلك ؟

— لا ، ولكنى أقاتل من يقاتلنى ، وأقتله .

— سبحان الله أتقتل رجلاً على دينك ، وتستحل دمه ؟

— لا . فاذهب عني أبا دلامة إلى لعنة الله . . .

— كلا . لا أفعل أو تسمع منى .

فقال الخارجى :

— قل ما شئت . . .

فقال أبو دلامة :

— هل كانت بيننا عداوة من قبل ؟ أو هل تعرفنى بحال تحفظك على ،

أو كانت بين أهلى وأهلك ترة ، أو هل سلبت منك مالاً ، أو أصبت لك متاعاً ، أو هتكت لك عرضاً ، أو قلت فيك قولاً يغضبك ؟

— لا والله أبا دلامة . . .

— ولا أنا ، والله أيها الرجل ، وإنى أدين بدينك ، ولا أريد

بك سوءاً .

— يا أبا دلامة جزاك الله خيراً . . . فانصرف . . .

— لا ، حتى تأكل معى ، فإنى أحب مواكلك لتؤكد المودة بيننا ،

ويرى عسكري وهوانهم علينا . . . !

— لا بأس ، فلنأكل على بركة الله .

وأخرج أبو دلامة الرغيفين والدجاجة ، وأخذاً يأكلان ، ورجال الجيش من حولهما ينظرون ويضحكون . . فلما استوفيا ، ودّع كل منهما صاحبه ، وعاد أبو دلامة لقائده في زهو يقول :

— أما أنا ، فقد كفيتك قرني ، فرّ غيري أن يكفيك قرنه كما كفيتك فضحك القائد ، وأعفاه . . .

بقيت الحرب أشهراً بين أبي مسلم الخراساني ، وعبد الله بن علي ، حتى ظهر جيش أبي مسلم ، وضعف جيش عبد الله ، فقال لأحد أصحابه :

— ما ترى ؟ . . .

— أرى والله أن تصبر ، وتقاتل حتى تموت ، فإن الفرار قبيح بمثلك ، ومن قبل عبته على مروان بن محمد . فقلت قبح الله مروان . جزع من الموت فقر . . !

فقاتل عبد الله قتالاً شديداً ، ولكن أبا مسلم ظهر عليه ، وكشف جيشه ، وأسرفلوه ، وغنم متاعه وخزائنه ، ففر إلى البصرة حيث نزل عند أخيه سليمان بن علي عاملها وقتئذ فأكرمه وواراه عن أعين المنصور . بقي عبد الله متوارياً زمنًا بالبصرة ، حتى علم المنصور ، فطلب من عمه سليمان أن يرسله إليه فتشفع له ، وطلب له الأمان ، فأبى حتى يقدم إليه ، فألح سليمان في الشفاعة والأمان ، فأمنه المنصور ، واستدعاه إليه ، فأذعن عبد الله ، وذهب إلى الخليفة ، فلما دخل عليه سلم وجلس ، فقال له المنصور :

— يا عمى واسيناك ، وأحسننا إليك ، ووصلنا رحك ، وحفظنا
حرمتك ، فحسدت وبغيت ، وجحدت واعتديت .

— إني لم أحسدك يا بن أخى على نعمة أسبغها الله عليك وعلى آل
العباس ، ولم أبغ بك شراً ، وما جحدتُ لكم فضلاً ، ولكن أبا مسلم أوغر
نفسك منى ، كما أوغر نفس أبى العباس من قبل ، وشاء أن يكون له ملك
الشام إلى ملك خراسان ، ثم يطمع فيك بعد ذلك ، فيكون له ملك بنى
العباس كله . وقد علمت كيف يدعى أنه من نسل عبد الله بن عباس ،
وقد أخذ خزائني ومتاعى وجاريتى وأرسلها إلى خراسان ولم يرسلها إليك
يا أمير المؤمنين .

— لكنك أعجبت أنت بنفسك ، وحبست عنا الخراج ، وخلعت
الطاعة ، وقربت موالى بنى أمية ، وأطعمتهم فينا وحاربوا فى جيشك .
— إني لم أحبس عنك خراجاً يا أمير المؤمنين ، ولكنى حفظته ليوم
تحتاج فيه إليه وما قربت موالى بنى أمية ، ولكنى سددتُ ثغورهم ،
وكفيتك شرهم .

— يا عمى لا تقل هذا ، فإنى أعلم بأمرك منك ، ولقد رأيت براً
برحك أن أحبسك حبساً هيناً رفيقاً ، حتى تؤدب نفسك ، ويبدوندمك
وأمر المنصور بحبسه فى بيت بناه له وجعل أساسه من ملح . فلما كان
ذات يوم أرسل الماء حوله ، فذاب الملح وسقط البيت عليه ، فمات ،
وقيل مات قضاء وقدرأ . . .

عاد أبو دلامة فيمن عاد من الجيش المنتصر على عبد الله إلى الأنبار ،
وبقى زمناً بعيداً عن المنصور ، متحامياً له ، متجافياً سبيله ، حتى قتل
المنصور أبا مسلم الخراساني فوفد عليه يهنئه مع المهثئين والمداهنين ، وأنشد
قصيدة يمدحه ويذم أبا مسلم ويقول :

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحي عليك بما خوفتني الأسدُ الورْدُ
أبا مسلم ما غير الله نعمةً على عبده حتى يغيرها العبدُ
فارتاح المنصور إلى قوله ، ورضى عنه وأكرمه ، وأمر بإنشاد هذه
القصيدة في محفل كبير ، ففعل ، فقال له المنصور : « سل ماتريد » فقال :
— عشرة آلاف درهم يا أمير المؤمنين . ولو شئت جعلتها دنانير .

فأمر له بها « دراهم » ! . ولما خلا به قال له :

— أما والله لو طمعت في غيرها لقتلتك .

وكان المنصور معروفاً بالاقتصاد وحب المال ، وكان أبو دلامة فقيراً
مسرماً ، وكانت له زوجة وأولاد ، فلما لبث أن أنفق العشرة الآلاف ،
وعاد إلى المنصور يشكو حاجته في قصيدة قال فيها :

إن الخليل^(١) أجدوا البين فانتجعوا وزودوك خبالاً بئس ما صنعوا

فقال المنصور : « وبئس ما صنعت » . فقال أبو دلامة :

والله يعلم أن كادت لبيئهمو يوم الفراق حصاة القلب تنصدعُ

فقال المنصور : « صدع الله حصاتك » فقال أبو دلامة :

عجبت من صبيتي يوماً وأهمو أم الدلامة لما هاجها الجزعُ

(١) الخليل الأصحاب ، والقوم الذين أمرهم واحد .

فقال المنصور : « ولماذا الجزع . ألم تذكر كتاب الله ؟ » فقال
أبو دلامة :

ذكرتها بكتاب الله حُرمتنا ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخرنطمت^(١) ثم قالت وهي مغضبة

أأنت تتلو كتاب الله يالكع

فضحك المنصور وقال : « صدقت والله يالكع ، ثم ماذا قالت ؟ » فقال
أبو دلامة قالت :

أخرج لتبغ لنا مالا ومزرعة كما لجيراننا مال ومزدرع
واخدع خليفتنا عنا بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدع

فضحك المنصور ضحكا طويلا وقال :

— ارضوا أم الدلامة عني ، واكتبوا لها بمائتي جريب عامرة ، ومائتي
جريب^(٢) غامرة .

فقال أبو دلامة :

— أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة ما بين
الحيرة والنجف وإن شئت زدتك .

فضحك المنصور وقال :

(١) فاخرنطمت رفعت أنفسها واستكبرت .

(٢) « الجريب » ثلاثة آلاف وستمئة ذراع من الأرض ، وقيل عشرة آلاف .
« والغامرة » الأرض التي لا نبات فيها .

— اجعلوها كلها عامرة .

استطاب أبو جعفر المنصور مجالس أبي دلامة ، ورضى عنه وقر به ،
وتغاضى عن مساوئه وفساد دينه ، وتجافى مأخذه للطف محله ، وخفة ظله ،
وفصاحة لسانه ، وجمال بيانه .

وأتى شهر الصيام ، فأراد الخليفة ألا يظهر نديمه وشاعره في هذا الشهر
بمظهر المنتهك للحرمات ، المضيّع للشعائر ، فأمره ألا يأتى منكرأ في رمضان
وقال له :

— عليك بالقيام معنا في شهر رمضان ، ولا تقعد دون ذلك .

— أفعلُ إن شاء الله . .

— فإن تأخرت ، أو شربت الخمر ، أو أتيت منكرأ غيرها ، علمتُ ،
ووالله لأُحدنك . . .

— سمعاً يا أمير المؤمنين وطاعة . والبليّة في شهر ، خيرٌ منها طول الدهر
ولزم أبو دلامة المسجد يصلى ويصوم ، وقد وكل به أبو جعفر ولى عهده
محمد المهدي . ليراقبه ، فشق ذلك على أبي دلامة ولجأ إلى زوجة المهدي
ريطة بنت أبي العباس ، ورفع إليها أبياتاً جاء فيها :

أبلغا ريطة أنى	كنت عبداً لأبيها
فضى يرحمه الله	وأوصى بى إليها
وأراها نسيته	مثل لسان أخيها
جاء شهر الصوم يعنى	مشية ما أشتيها

فائدأ لى لىلة القد ر كأتى أبتغىها
تنطح القبله شهرأ جبهى لاتأتلها
ولقد عشت زمانأ فى فىافى وجىها
مأأبالى لىلة القد ر ولا تسمعىها
فاطلى لى فرجأ مذ ها وأجرى لك فىها
فلما قرأت الأبيات ضحككت ، وأرسلت إليه تقول :

— اصطبر حتى تمضى لىلة القدر .

فكتب إليها :

إنى لم أسألك أن تكلميه فى إعفائى عامأ قابلاً . وإذا مضت لىلة القدر ،
فقد فنى الشهر .

ومضى أبو دلامة فشرب الخمر سراً فى بعض الحانات ، فسكر ، وخرج
وهو يميل ، فلقى العسس ، فأخذه ، وخرقوا ثيابه وساجه^(١) ، وأتوا به إلى
أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع الدجاج . فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ،
وجاريته أخرى ، فلا يجيبه أحد ، وهو فى ذلك يسمع صوت الدجاج ،
وزقاء الديوك ، فلما أكثر قال له السجنان :

— ما شأنك لماذا تصيح يا هذا ؟

— ويلك من أنت ، وأين أنا ؟؟

— فى الحبس ، وأنا فلان السجنان .

— ومن حبسنى فى هذا القفص ؟

— أمير المؤمنين المنصور .

(١) الساج من الثياب الطيلسان وهو كساء كان الخواص يلبسونه

— ومن خرق طيلسانى ؟

— الحرس .

فطلب منه أبودلامة أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب

إلى المنصور :

أمير المؤمنين فدتك نفسى	علام حبستنى وخرقت ساجى
أمن صفراء صافية المزاج	كأن شعاها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى	لقد صارت من النطف ^(١) النضاج
تهش لها النفوس وتشتهيها	لماذا برزت تفرق فى الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم	كأنى بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان سهلا	ولكنى حبست مع الدجاج
وقد كانت تخبرنى ذنوبى	بأنى من عقابك غير ناجى
على أنى وإن لاقيت شراً	لخيرك بعد ذاك الشر راجى

فدعا به المنصور ، وقال له : « وماذا كنت تصنع مع الدجاج ؟ »

فأجابه :

— أقوق معها حتى الصباح . . .

فضحك المنصور ، وخلق سبيله . فقال له وزيره الربيع بن يونس :

— إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، وقد أقر بذلك . أو ما سمعت

قوله : وقد طبخت بنار الله (يعنى الشمس) .

فأمر المنصور برده ، وقال له :

— يا خبيث شربت الخمر ، وقد حلفت لأحدنك .

(١) النطف جمع نطفة ، وتطلق على الماء الصافى

— لم أفعل يا أمير المؤمنين . . .
— أفلم تقل ، وقد طبخت بنار الله تعنى الشمس .
— لا يا أمير المؤمنين . ما عنيت إلا نار الله الموقدة التى تطلع على
فؤاد الربيع . . . !

فضحك المنصور ضحكاً شديداً حتى استلقى ، وقال لوزيره الربيع :
— خذها يا ربيع . ولا تعاود التعرض له . . !



عبد الجوهـر

تصور هذه القصة بعض جوانب الصراع
بين العباسيين والأمويين ، كما تصور حياة
رجل سياسى من مشاهير الرجال فى ذلك
العصر ، وهو معن بن زائدة .

وخرج معن بن زائدة من « باب حرب ^(١) » بالأنبار متذكراً ، مخافة
القبض عليه ، وقد خفف عارضيه ولحيته وأخفى شارب به ، وتعرض للشمس
حتى لوحت وجهه ، وتزيّياً بزى أعراب البادية ، وامتطى جملاً ذلولاً
ليضرب به فى الصحراء ، ويقيم فى مجاهلها بعيداً عن نقمة أبى جعفر المنصور ،
وفراراً من عيون الذين يترقبونه ، ويجدون فى طلبه .

وإنه بين اليأس والأمل ، وبين الخوف والحذر ، وقد هجع الليل وهمد
القوم وأخذ يتسلل فى رفق ، إذ طلع عليه رجل أسود متقلد سيفاً ، فأهوى
إلى خطام الجمل ، وتعلق به ، ثم أوقفه وأناخه فى تشاقل وجراءة ، فنظر
إليه معن فى توجس وإشفاق ، وقال :

— مالك يا هذا . . ١٩

(١) هو باب من أبواب مدينة الأنبار فى ذلك العهد .

فلم يجب الأسود ، وأسرع معن لينتضى سيفه ، فعاجله الأسود
وأمسك بيده ، وقال :

— أتريد قتلى ؟ ! ..

فقال معن :

— ولماذا تنيخ بعيرى ، وتقبض على يدى ؟

فسكت الأسود سكوتاً ثقيلاً ، فقال معن :

— دعنى فى سبيلى يرحمك الله ، فما أعرف بينى وبينك شيئاً

فنظر إليه الأسود فى هدوء ، وقال فى تهكم :

— أأنت الرجل الذى يطلبه أمير المؤمنين المنصور ؟ !

— ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين المنصور . . . فما أنا بملك أو

أمير أو وزير ، ولا أراه يطلب رجلاً مثلى لا خطر له ، ولا مطمع فيه ،

وإنى لأعرابى غريب عن هذه الدار . . . !

— أتتكربيا هذا ، أولست معن بن زائدة صاحب يزيد بن هبيرة

عامل الأمويين ، وعدو أمير المؤمنين بواسط ؟ . . . (١)

— يا هذا اتق الله . . فأين أنا من معن بن زائدة ، وأين هو من

بغداد ، بل أين هو من العراق . وقد فر أصحاب ابن هبيرة إلى مصر

والشام واليمن .

— دع عنك هذا يا معن ، والله إنى لأعرف بك منك . . .

(١) واسط مدينة بين دجلة والفرات

وسكت معن بن زائدة ، وقد أيقن أن الرجل مجذ في قوله . وأنه وقع
في يده ، ورأى أن لا حيلة له من الخلاص إلا إذا افتدى نفسه بأعز
ما عنده ، فعمد إلى رحله ، فانتزع منه عقداً من الجوهر النفيس ، وقال له :
— إليك هذا العقد ، فقد حملته معي وهو أعز شيء عندي ، ويبي
بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء به إليه ، نأخذ هدية مني ، ولا تسفك
دمي يرحمك الله .

فتناوله الأسود ، ونظر إليه ، وقلبه ملياً ، ثم قال :
— صدقت في قيمته ، إنه لعقد نفيس ، لكني لا أقبله حتى أسألك
عن شيء ، فإن صدقتني أطلقك .
— سل ما تريد .

— إن الناس قد وصفوك يا معن بالجود ، وامتدحوك بالعطاء الجزيل ،
وضربوا الأمثال بشهامتك ، وأكبروا معروفك ونجديتك ، فأخبرني : هل
جئت بمالك كله ؟

فقال معن : « لا » . قال : « فبنصفه » فقال : « لا » قال : « فبثلثه »
فقال : « لا » قال : « فبربعه » فقال : « لا » حتى بلغ العشر ، فاستحيا
معن ، وقال :

— أظن أني فعلت ذلك

فقال الأسود :

— ما أراك فعلته ، ولا أعلم أنك فعلته ، وما ذاك إن كنت فعلته

بعظيم . . . إننى والله لرجل فقير لى عيال صغار ، ورزقى من أبى جعفر
عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار ، وهو الآن فى يدى ،
وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك لتعلم أنه فى الدنيا من هو أكرم منك يداً ،
وأسخى منك نفساً ، وأجل منك معروفاً .

ثم رمى بالعقد إليه ، وخلى سبيله ، وانصرف . . فناداه معن بن زائدة :
— يا هذا . . يا هذا . . أجبني يرحمك الله . . من أنت يا أخى . .
قد والله فضحتنى . ولسفك دمي أهون عندي مما فعلت ، نخذ ما دفعته
إليك ، فإني غنى عنه ، وأنت أحق به لنفسك وعيالك .

فالتفت إليه الرجل ، وضحك فى استهزاء وقال :
— أردت أن تكذبني فى مقالى هذا . . والله لا أقبله ، ولا آخذ ثمناً
لمعروف أبداً .

ومضى فى سبيله . .

كان معن بن زائدة من قواد الدولة الأموية ، وكان معروفاً بالشجاعة
والكرم ؛ مشهوراً بالمروءة والنجدة وعلو الهمة ، وكان فى عهد مروان بن محمد
متنقلاً فى الولايات ، ثم اختص بصحبة يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ،
وأمرهم بالعراقين^(١) ، وأبلى فى محاربة العباسيين بلاء حسناً . وكان أبو العباس
قد وجه أخاه أبا جعفر إلى مدينة واسط فى جيش لمحاربة ابن هبيرة ،

(١) العراق يطلق على شاطئى النهر ، وسميت البلاد التى بين دجلة والفرات
بالعراقين لأنها بين شاطئيهما

فتحصن بها ، وجمع الجموع ، ونصب الجسور ، فلما كان يوم المعركة اختلف
اليمانية والقيسية في جيشه على القتال ، فقالت اليمانية :

— والله لا نقاتل على دعوة بنى أمية لسوء رأيهم فينا ، وبغضهم

لنا

وقالت القيسية :

— والله لا نقاتل حتى يقاتل اليمانية . . .

وكفت القبيلتان عن القتال مع ابن هبيرة ، ولم يقاتل معه إلا صعاليك
القوم وأهل العطاء ، فانهزم وفر كثير من أصحابه . فبعث إلى أبي جعفر
بالصلح ، فأجابه ، وأمنه ، واستدعاه لمقابلته ، فسار إليه في ألف وثلثمائة
رجل ، وكان يطوف بدار أبي جعفر عشرة آلاف رجل من أهل خراسان
مستملئين بالسلاح ، وعيمونهم ترهون تحت المغافر .

فلما دخل على أبي جعفر قال له :

— مرحباً بك أبا خالد ، انزل راشداً .

ثم أجلسه على وسادة وضعت له وأكرمه وجعل يتحدث طويلاً ، ثم
نهض ابن هبيرة وركب ، واتبعه أبو جعفر ببصره حتى انصرف .

لم تكن هزيمة بن هبيرة سنة ١٣٢ هـ بكافية للقضاء على سلطانه ، ولم
تكن مصادرة أمواله وإعطائه الأمان بدافعة عنه المصير الذي كان يخفيه له
أبو جعفر ، ويلح فيه أبو العباس ، ويغري به أبو مسلم الخراساني فقد كان
أبو مسلم كثيراً ما يكتب إلى أبي العباس يقول :

« والله لا يصلح طريق سهل فيه حجارة إلا ضرَّ ذلك بأهله . ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة وأصحابه » .

وبعث أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، فمأطله وأضجره فكتب إليه يقول :

— والله لتقتلنه ، أو لأبعثن إليك من يخرجك من عندك ، ويتولى ذلك عنك .

فرد عليه أبو جعفر « إني لفاعل إن شاء الله » وأخذ يأتمر بابن هبيرة في مدينة واسط ، وكان ابن هبيرة إذا ركب إليه صحبه ثلثمائة فارس ، وخسمائة راجل ، فدخل يزيد بن حاتم على أبي جعفر وقال له :

— أصلح الله الأمير ما ذهب من سلطان ابن هبيرة شيء ! ... يأتينا في ركبته ، فيضع به العسكر .

فنادى أبو جعفر أحد رجاله ، وقال له :

— قل لابن هبيرة لا يركب في مثل هذه الجماعة إذا حضر إلى ، وليأت في حاشيته .

فذهب الرسول ، وقال له :

— ما هذه الجماعة التي تقبل معك ، كأنك تأتي إلى الأمير مباهياً ، أو كأنك تأتي مهدداً . . .

فقال ابن هبيرة :

— إن أحببتم أن نمشي وحدنا فعلنا ، وإن شئتم أن نأتي على أقدامنا

أتينا ، فنحن في أمركم ، ولكم أن تفعلوا بنا ما تشاءون .
فأجاب الرسول :

— ما نريد بك استخفافاً أبا خالد ، ولكن أهل العسكر إذا رأوا
هذه الجماعة غمهم ذلك ، فأراد الأمير ألا يغضب القوم .

فتوجس ابن هبيرة شراً ، وأخذ يحتال للخلاص من أسره والفرار من
مصيره ، واجتمع رأى القوم على الغدر به وقتله ، وكان قواد أبي جعفر
يدخلون عليه ويستعجلونه ، ويقولون ماذا ننتظر بهذا الأموى عدو أمير
المؤمنين . . هلا بعثت إليه من يريحنا منه ؟

فأرسل أبو جعفر إلى الحسين بن قطبة ، وخاطبه في شأنه ، وطلب
إليه أن يأتي برأسه ، فاعتذر الحسين ، وقال :

— ليس رأى أن أتولى أنا ذلك ، ولكن ابعث إليه رجلاً مضرراً
من قومه ليقتله ، فتتفرق كلمتهم . . .

فقال أبو جعفر :

— صدقت ، وأصبت ، فمن الخير لنا أن نفتنهم بأنفسهم ، لا أن

نفتنهم بنا . . !

ودعا أبو جعفر مائة رجل من المضرية ، وعلى رأسهم خازم بن خزيمة
وبعث بهم إلى ابن هبيرة ، وكان وقتئذ جالساً في رخصة قصره ، وعليه
قميص مصرى ، ومعه أبناؤه ومواليه ، وفي حجره طفل منهم صغير . فقاجأهم
القوم في المساء ، وهم يسمرون ويتضحكون .

فقالوا لابن هبيرة :

- إننا زيد حمل ما بقى عندك من الخزائن .
- وهل أبقي أبو جعفر عندي فائضاً من المال يحملونه إليه ؟
- لقد علم الأمير أنك تدخر كثيراً ، فبعث بنا لنأتي بكل ما تدخر . .

— إننى لم أدخر شيئاً فوق ما أحتاج لنفسي وأبنائى ، فادخلوا
وخذوا لأميركم ما تريدون . .

ودخل خازم وصحبه ، فطافوا فى حجر القصر وغرفته ساعة حملوا فيها
ما حملوا ، وبعد ما توثقوا من كل شىء توجهوا نحو ابن هبيرة ، فنظر
إليهم ، وقال :

- والله إن فى وجوه القوم لشرأ . .
- وانبرى إليهم حاجبه أبو عثمان فقال لهم :
- ما وراءكم أيها القوم بعد ما أخذتم ما أخذتم ، وحملت ما حملتم ،
أتريدون الغدر بمن أمّنه أميركم ، وأقسم له الإيمان ؟ ! ...

فقالوا :

— تنح يا هذا فما كان لنا أن نغدر إلا بمن غدر بنا . ولقد بلغ
أبو جعفر أن صاحبك يتربص به ، ويعمل للفرار من وجهه بعد ما
أمّنه ، وأكرمه . .

وتقدم بعض القوم ، فاعترضهم أبو عثمان ، فنصحه أحدهم بسيفه ،

فصرعه ، فقام داود ابنه فقاتلهم ، ففترقوا عليه ، وقتلوه هو ومواليه ، ثم مضوا إلى ابن هبيرة وقد شهرروا سيوفهم ، فقال :

— ويحكم نحثوا عنى هذا الصبي حتى لا يرى مصرعى . .
فنحوه عنه . وخر ساجداً ، فقتلوه . . . وأخذوا رأسه إلى أبي جعفر ، فأمر برفعها على خشبة في المدينة ، ومعه رؤوس غيره من عمال الأمويين .

قُتل ابن هبيرة ، وتفرق أصحابه في البلاد ، وفرَّ معن بن زائدة فيمن فر منهم ، وأخذ يتنقل بين البدو والحضر ، ضارباً في الفلاة تارة ، متنكراً في المدن تارة أخرى ، وظل كذلك حتى توفي أبو العباس وتولى الخلافة بعده أبو جعفر المنصور ، فجد في طلبه لمكانته . وخطره ، ووعد بعباءة جزيل لمن يأتي به أو برأسه ، إذ كان من سياسة العباسيين أن يقضوا على صناديد بني أمية ، ورجال دولتهم أينما كانوا . وأيقن معن بمصيره المشئوم ، فتخفى وجداً في التخفى ، واحتال لذلك ما وسعته الحيلة .

وكان قد نزل الأنبار ، وأقام بها متنبكراً ، فلما ضيقت عليه عيون أبي جعفر خرج في جنح الليل من باب حرب ، وقد خفف عارضيه ولحيته وأحفى شاربه ، وتعرض للشمس حتى لوجت وجهه ، وتزيا بزى أعراب البادية ، وامتطى جملاً ذلولاً ، فلقى رجل أسود من رجال أبي جعفر فأمسك به : وأناخ بعيره ، فقدم له عقداً من الجوهر النفيس ليطلقه ، فردّه إليه ، وأطلقه وقد وهبه لنفسه ولجوده . .

بقى معن بن زائدة مختبئاً ، فاراً متخفياً ، يتنقل من مضرب إلى مضرب ومن مذهب إلى مذهب ، ويقوم في بلد حذراً متردداً ثم لا يلبث أن يرحل عنها خائفاً مترقباً ، حتى كان يوم الهاشمية^(١) من سنة ١٣٧ هـ فانهزم فرصة للخلاص من نقمة أبي جعفر ، والفوز برضاه وأمانه . وكان الرواندية^(٢) في ذلك اليوم قد ثاروا في المدينة وصاروا يطوفون بقصر أبي جعفر ، ويقولون « هذا قصر ربنا » فحبس منهم المنصور مائتين ، فغضبوا ، وأتوا بنعش وحملوه وليس به أحد ، وطافوا بالمدينة حتى جاءوا إلى باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، فقتلوه ، وأخرجوا منه أصحابهم ، فتنادى الناس بالمدينة ، وضجوا بها ، وتداعت الأصوات ، واستورى زناد الفتنة ، وحمى وطيس القتال .

ونزل المنصور من قصره ، وركب دابة ، وقد اختلط القوم ، واشتبهت الجنود بالثائرين ؛ وهم بعض الراوندية بقتل المنصور ، فانبرى لهم رجل ملثم . وقاتلهم دونه قتالا شديداً : وصرع منهم كثيرين ، وانكشف القوم ، وهدأت المدينة ، فاستدعاه المنصور ، وقال له :

— من أنت لله أبوك ؟ . .

(١) الهاشمية مدينة بالعراق بناها أبو العباس لتكون عاصمة للخلافة بدل الأنبار والكوفة وقد أقام فيها المنصور قبل أن يبنى بغداد .

(٢) الراوندية قوم من غلاة الدعوة العباسية قالوا بتناسخ الأرواح ، وزعموا أن أبا جعفر المنصور ربهم ، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل .

- أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة . . .
- أنت معن ؟ . .
- نعم يا أمير المؤمنين . ولقد ادخرتُ نفسي لمثل هذا اليوم ، ولو شاء أمير المؤمنين كنتُ في خدمته .
- مثلك يدخر ويصطنع ، وقد أمنتك على نفسك ومالك .
- ثم اصططحبه معه أبو جعفر ، وخلع عليه وأكرمه . . .
- وبعد أيام دعاه لمقابلته ، فحضر معن ، فقال له :
- يا معن ، إني سأعهد إليك في أمر ، فكيف تكون فيه ؟ .
- أكون كما يحب أمير المؤمنين ، وكما يكره أعداؤه . . .
- إني قد وليتك اليمن ، فابسط السيف فيهم ما شئت حتى تنقض حلف ربيعة واليمن وتشتت شمل أعدائي ، وأعداء بني العباس .
- أبلغُ من ذلك ما يريد أمير المؤمنين .
- وذهب إلى اليمن ، وتولى أمره ، وقتل وأسرف . . !

وكان لمعن بن زائدة شاعر قد اختص بمدحه ، وأغدق عليه العطايا ، هو مروان بن أبي حفصة ، فلما تولى اليمن نظم قصيدة نونية تحدث فيها عن نجده وشهامته وشجاعته وكرمه ، فبلغ المنصور أمر هذه القصيدة ، فلما وفد معن على أبي جعفر بعدها ، قال له :

— قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ، ورأيه فيك
لغضب عليك .

— وماذا يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تعرضت لنفقتك ، ولا اقترفت
مخالفتك ، وما أظن أنني أتيت أمراً يغضبك .

— بل سمعت أنك أعطيت مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله :
معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عدّ أيام الفعّال فأثما يوماء يوم ندى ويوم طعان
فقال معن :

— والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، بل
أعطيته لقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلماً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند و سنان
فابتسم المنصور ، وقال :

— لله درك يا بن زائدة ، إنما أعطيته لهذا القول ؟ ... !

— نعم يا أمير المؤمنين . ولولا مخافة النعمة عندك ، لأمكنته من
مفاتيح بيوت المال ، وأبجته إياها .

— ما أهون عليك يا معن ما يعز على نفوس الرجال .

— ذلك من فضل أمير المؤمنين . . !

ظل معن بن زائدة في طاعة العباسيين وخدمتهم ، وقد وثقوا به ،
وتنقل في الولايات ، وكان في أواخر أمره والياً لسجستان ، وكان الخوارج
يبلغونه لخذلانه إياهم وانضمامه للعباسيين ، فبينما كان في أحد أيام
سنة ١٥٢ هـ دعا بعض الصناع ليعملوا عملاً في داره فاندس بينهم بعض
الخوارج ، ففاجأوه وهو يحتجم وقتلوه ، فراح ضخمة السياسة وكم للسياسة
من ضحايا . . . !



أيوب

كان ابن المقفع أنبغ معاصريه في فنه ، وكان
مع أدبه يشتغل بالسياسة ، لأن السياسة في
ذلك العصر كانت صناعة كبار الأدباء ، فأصابه
منها شر ما يصيب رجال السياسة من شر
وبلاء ، فلقى مصرعه على يد رجل جاهل .

— كأنك تحسب أنني لا أعرف موضع ابن المقفع ومكانته بين
الناس ! ..

قال هذا أبو جعفر المنصور لوزيره وكتبه أبي^(١) أيوب سليمان ، وهو
يؤنبه لكيده لخالد بن برمك ، وسعايته به عنده ، فقال أبو أيوب :
— الأمان يا أمير المؤمنين . إني لأعلم ذلك ، وأعلم أنه بك أولى من
عمك عيسى بن علي .

فقال أبو جعفر :

— فقيم السعاية إذن بخالد بن برمك ، وقد صرفته عن الديوان ،
وقلدت إياه ، وأبعدته إلى فارس حتى لا تتخوفه على محلك ، وجزيتك

(١) هو سليمان بن مخلد المورياني من قرية من قرى الأهواز تسمى « الموريان »
وكان أديباً عالماً ، وقد تقلد الوزارة في عهد المنصور .

على سابق صنيعك أحسن الجزاء ، فقربتك منى ، ورفعتك فوق سائر الكتاب ، وأغضيتُ عن ابن المقفع « أكتب الخلق » وتركته لأعمامى يستعينون بأدبه ، ويعتزون بفضله ، ويفخرون بخدمته .

وكان أبو أيوب فى أيام « بنى أمية » كاتباً لسليمان بن حبيب والى « الأهواز » وقد وضع سليمان الأرصاد على كل من يمر من عمال عبد الله بن معاوية الطالبي والى أصبهان . وكان أبو جعفر المنصور قد وفد على عبد الله فى ذلك الحين ، فأقامه على « كورة أيدج » فجفى أبو جعفر المال وحمله إلى البصرة ، ولم يحمل إلى ابن معاوية شيئاً ، فلما وصل فى طريقه إلى الأهواز لقيه رجال سليمان فقبضوا عليه ، وأخذوه إليه ، وكان أبو أيوب حاضراً ، فقال له سليمان بن حبيب :

— هات المال الذى اختنته لنفسك . . .

فأجاب أبو جعفر :

— لا مال عندى ! . .

فدعا له سليمان بالسياط ، فقال أبو أيوب :

— أيها الأمير توقف عن ضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية

فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن لك بلاد الإسلام بلاداً .

فلم يسمع له سليمان ، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطاً حتى كاد يفيض ، فقام أبو أيوب وألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل سليمان ويستعطفه

حتى أمسك عن ضربه ، وأمر بسجنه ، فتحركت المضربة لضرب أبي جعفر وسجنه ، وتجمعوا وصاروا إلى السجن فكسروه ، وأطلقوه ، فخرج إلى البصرة .

ورعى أبو جعفر هذا الصنيع لأبي أيوب ، فلما تولى الخلافة اتخذه في ديوانه وقربه إليه ، وخصّه بتكريمه ، وصرف من أجله خالد بن برمك وزيره ، وقلده أعمال فارس ، ولم يزل أمر أبي أيوب يعلو ، ونجمه يسطع حتى تقلد الوزارة ، ودانت له السيطرة على جميع الدواوين والأعمال ، وأصبح من نفس أبي جعفر بمكان لا يدانيه فيه أحد من رجال الدولة ، حتى قالت العامة إنه كان يسحر له ، ويتخذ دهنًا يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضرب المثل بدهن أبي أيوب .

وبلغ من مكانة أبي أيوب عند أبي جعفر المنصور أن أم سليمان الطلحية إحدى زوجاته اتخذت له مجلساً في الصيف ، وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجبه بيزده وحسنه ، ثم قال لها :

— ما أنتفع بما أنا فيه . . .

فقالت أم سليمان :

— ولم يا أمير المؤمنين ؟

فقال : « لأنه ليس معي أبو أيوب ، فيحدثني ويؤنسني ، فقالت : « يا أمير المؤمنين إنما هيأته لسرورك ، فإن شئت بعثت إليه » .

فبعث أبو جعفر إلى أبي أيوب ، فحضر ، فقال له :

— يا أبا أيوب كما رأيت طيب هذا الموضع ولذته ، لم أنتفع به حتى
تكون معي فيه ..

كانت هذه مكانة أبي أيوب سليمان عند المنصور ، لذلك حرص على
حفظها ، وتخوف غيره عليها ، وكان يعلم شأن خالد بن برمك عنده ،
وثقته به ، ومكانة أدب ابن المقفع من رأيه وتقديره .

فكان دائم الخوف من أن يعيد المنصور خالد بن برمك إلى الديوان ،
فدأب على السعاية به وهو بفارس حتى نكبه أبو جعفر وألزمه بدفع ثلثمائة
ألف درهم ، ولم يكن لديه إلا مائة ألف درهم ، ثم ظهرت فيما بعد براءته
وكذب أبي أيوب ، فصفح عنه ، وهدد أبا أيوب بعزله قائلاً :

— كأنك تحسب أني لا أعرف موضع ابن المقفع ومكانته بين الناس
ساء أبا أيوب أن يظفر ابن المقفع بهذا التقدير ، وأخذ يدس له كما دس
لخالد ، وكان ابن المقفع يكتب وقتئذ لعيسى بن علي والي « كرمان » وعم
المنصور وقد جاء يوماً إلى عيسى ، وقال له :

— دخل الإسلام قلبي ، وأريد أن أسلم على يدك .

فقال عيسى :

— ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس .

ثم حضر طعامه عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم
على عادة المجوس فقال له عيسى :

— أترمزم وأنت على عزم الإسلام ؟

فقال ابن المقفع :

— إني لأكره أن أبيت على غير دين .

وأسلم ابن المقفع ، وسمى نفسه « عبد الله » ، ثم انتقل مع عيسى بن علي بعد عزله إلى البصرة ، وكان واليها يومئذ أخاه سليمان بن علي ، فجعل يكتب لهما ، ويؤدب ابني أخيهما اسماعيل بن علي ، ويبعث بكتبهما إلى أخيهما الرابع عبد الله بن علي ، وكان خارجاً على أبي جعفر المنصور في الجزيرة والشام مطالباً بالخلافة لنفسه ، وقد بعث مرة إلى ابن المقفع يستشيريه ، فأجابه :

— لست أقود جيشاً ، ولا أتقلد حرباً ، ولا أشير بسفك دم ، وعثرة الحرب لا تقال ؛ وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان .

وكان أبو جعفر بمكة حين مات أخوه أبو العباس ، فأخذ البيعة له بالعراق عيسى بن موسى والي الكوفة ، وكتب إليه وإلى عمال الدولة بذلك ، وفيهم عمه عبد الله بن علي السفاح ، فرفض عبد الله مبايعته ، وبايع لنفسه بالخلافة ، واعتصم بالجزيرة والشام ، فخاف أبو جعفر ؛ وجزع جزعاً شديداً ، فقال له أبو مسلم الخراساني :

— ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟

فقال أبو جعفر :

— إني لأتخوف شر عبد الله بن علي ، وشيعة علي بن أبي طالب .

فقال أبو مسلم :

— لا تخفه ، فأنا أكفيك أمره إن شاء الله ، إن عامة جنده ومن معه من أهل خراسان وهم لا يعصوننى . .

وخرج فى جيش لقتال عبد الله بن على وقد جمع إليه الجند والسلاح ، فلما علم عبد الله بخروج بطل الدولة العباسية إليه ، قبض على من معه من أهل خراسان وأمر بقتلهم ، فذبخوا حتى لا ينضموا إلى أبى مسلم وبقي القتال بينهما بضعة أشهر ، حتى ظفر أبو مسلم ، وفر عبد الله إلى أخوته بالبصرة .

علم المنصور بفرار عبد الله إلى البصرة ، واستنجد به بأخوته ، فأرسل إلى واليها سليمان بن على ليبعث إليه بأخيه ، فامتنع ، فأمر أبو جعفر بعزله ، وأرسل سفيان بن معاوية المهلبى والياً مكانه ، وهو من صنائع « أبى أيوب » ، وألح عليه فى إرسال عبد الله ، فخاطب أخوته فى ذلك ، فأبوا إلا أن يوافق أمير المؤمنين على كتاب أمان له يكتبونه ، فرضى المنصور ، وكلف عيسى بن على كاتبه ابن المقفع أن يكتب كتاباً شديداً الحيلة ، بعيداً عن التأويل ، فكتب هذا الكتاب ، وفيه يقول :

« وإن أنا نلتُ عبد الله بن على ، أو أحداً ممن أقدمهم معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً ، سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفى من محمد بن على بن عبد الله ومولود لغير رشدة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد

خلى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد
ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، وإعانة من ناوأنى من
جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين » .

فلما قرأ أبو جعفر ذلك ، قال للرسول :

— إذا وقعت عينى على عبد الله ، فهذا الأمان له صحيح ، لأنى
لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى
على الفساد .

ثم التفت فى غضب وغيظ وقال :

— ومن كتب له هذا الأمان ؟ .

فأجاب أبو أيوب :

— كتبه يا مولاي « أكتب الخلق ابن المقفع » ! .

فهز المنصور رأسه ، وقد أخذ الغضب من نفسه وقال :

— فما أحد يكفينى إياه ؟ ! .

وكان أبو أيوب يتهم ابن المقفع عند المنصور بأنه هو الذى يساعد عبد الله
برأيه ويعاونه بكتبه ، ويحضه على مخالفته وحربه ، فلما سمع هذا القول
منه وجد الفرصة للايقاع به وأعلم صنيعته « سفيان بن معاوية » وإلى
البصرة ؛ وكان سفيان يحقد أيضاً على ابن المقفع منذ سفر بينه وبين
« المسيح بن الحواري » وإلى نيسابور أيام بنى أمية ، فقد احتال ابن المقفع

على سفيان ومأطله حتى استعد المسيح وقاتله وهزمه ، فعاد سفيان دون أن يخلف المسيح في الولاية كما أراد .

فلما وصله ما قاله أبو جعفر ، وكان يعلم ما يضره أبو أيوب لابن المقفع من الحسد والخوف ، أخذ يتعقبه ويتحرش به ، ويفترى عليه ؛ حتى ضاق به ابن المقفع واستصغره فكبر ذلك على سفيان ، وأضر له شراً كثيراً .

وكان عيسى بن علي ينيب ابن المقفع في شؤونه ، ويـكـلُ إليه عظام أموره ، ويرسله إلى سفيان بن معاوية في حاجاته ، فلما ساء ما بينهما امتنع عن السفارة إليه ، وأعرض عن الاتصال به . ثم كان لعيسى بن علي ما اضطره إلى رجاء ابن المقفع أن يذهب إلى سفيان في بعض شأنه ، فاعتذر ابن المقفع وألح عليه عيسى لأنه لا يرى غيره أولى منه في قضاء مهمته ، فقال له .

— وجه معي إبراهيم ابن جبلة الكندي ، فإنني لا آمن سفيان . . .
فقال عيسى :

— كلا ، انطلق إليه ولا تخف ، فوالله لا يعرض لك وهو يعلم مكانك مني . .

فقال ابن المقفع :

— لا . لا بد من إبراهيم ، فإن صاحب الشر لا يسلم من شره أحد ،

وإن هو ضعف عن ذلك جاء الشر بسببه ، وإن أهل الترات لابد لبعضهم من اتقاء بعض .

وذهب إبراهيم بن جبلة مع عبد الله بن المقفع ، فجلسا على باب الديوان وجاء عمر بن جميل ، ابن عم إبراهيم فجلس إليهما . وانهم لسكذلك إذا بسلام لسفيان يخرج ، وينظر إليهم ، ثم يرجع . وبعد هنيئة عاد الغلام ، فقال لعمر :

— يقول لك الأمير ادخل الديوان ، فاجلس فيه ، فإذا انتصف النهار قابلتك . .

فقام عمر بن جميل ، فدخل الديوان ، ودخل الغلام ، ثم عاد ؛ فقال لإبراهيم .

— يقول لك الأمير ادخل إليه . . .

.. فنهض إبراهيم بن جبلة ودخل إلى سفيان . . وبعد هنيئة عاد الغلام ، فقال لابن المقفع :

— يقول لك الأمير ادخل . . .

فقام ابن المقفع ، وبينما هو سائر داخل الديوان عدل به إلى مقصورة أخرى بها عتّاب الحمدي ، وشيروه الملاديسي ، فأخذاه ؛ وأوثقاه بالقيود والأغلال .

ولما دخل إبراهيم بن جبلة على سفيان ، قال له : « إيدن لابن المقفع » فقال سفيان لغلامه : « إيدن له » .

فخرج الغلام متظاهراً بالذهاب إليه ، ثم رجع يقول :

— لقد انصرف ابن المقفع . . .

فقال سفيان لابراهيم :

— انظر . . هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله ،
وما أشك أنه قد غضب .

ثم نهض سفيان ، وقال لابراهيم لا تبرح ، ودخل إلى حيث اقتيد
ابن المقفع ، فلما رآه قال له :

— وقعت والله ! . .

فأجاب ابن المقفع :

— أنشدك الله . . !

فقال سفيان :

— أمي مُغتلمة ، كما ذكرت ، ان لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قبلك .

فأجاب ابن المقفع :

— انك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قُتل ألف مثلك

ما وفوا بواحد . . !

ثم قال :

إذا مامات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

فقال سفيان :

— والله يا ابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة . . .
وأمر بتنور فسُجِر ، ثم أمر بقطع يمينه ، فقطعت وألقيت في النار ،
فقال ابن المقفع :

— ان أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرها ويقضى منهما ما يشاء .
فقال سفيان :

— اسكت يا زنديق . . .

وأمر بقطع يده اليسرى ، وألقيت في النار ، فقال ابن المقفع :
— لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

فقال سفيان :

— أسكت بازنديق ، والله لتموتن شرميتة .

فقال ابن المقفع :

— إن الله خلق الخلق بقدرته ، وكتب عليهم الموت بعد الحياة .

فقال سفيان :

— إخساً يا زنديق ، والله لتقطعن إرباً إرباً ، ولتجعلن رماداً

تذروه الرياح .

وجعل سفيان يأمر بقطع أجزائه ويلقيها في النار إلى أن أحرقه ، ولم
يترك له أثراً .

لحق ابن المقفع مصرعه على يد هذا المتوحش الجاهل ، ثم دخل سفيان

إلى إبراهيم بن جبلة فحدثه ساعة ، ثم أذن له في الخروج ، فلقى بالبواب غلام ابن المقفع ؛ فقال له :

« ما فعل مولاي » فقال إبراهيم : « لا رأيته » .

فقال الغلام : « بلى ، فقد دخل بعدك » فقال إبراهيم : « ما رأيته » !

وأراد الرجوع إلى سفيان ، فحجب ، فانصرف إلى عيسى بن علي ومعه

غلام ابن المقفع يبكي ويصيح :

— قتل سفيان مولاي

فقال عيسى : « ما هذا ؟ » فأخبره إبراهيم ما جرى ، فقال له :

— ارجع إلى سفيان ، فقل له خلّ عن ابن المقفع إن لم تكن قتلته ،

فإن كنت قتلته ، فوالله لأطلبنك بدمه ، ولا أدع في ذلك جهداً .

فسار إبراهيم إلى سفيان ، وأبلغه ما قاله عيسى ، فأجاب :

— ما رأييت ابن المقفع . . !

وصرفه ، ودعا بعمر بن جميل من الديوان ، وقال له :

— ألا تعجب من ابن عمك يأتيني برسالة عسى ، يدعى أني قتلت

ابن المقفع . . !

فقال عمر :

— لا ذنب له فيما قال ، فانما أرسل برسالة فأداها .

فقال :

— صدقت ، وما الرأي عندك ؟ ؟ .

فأجاب عمر :

— إن عيسى بن على لا يقدر لك ها هنا على مضرة لأنك الوالى ،
لكنه سيحكم أمير المؤمنين المنصور ، وليس أحد أخوف عليك من أبى أيوب
سليمان فإنه إن عاونه ضررك ، وإن كف عنك نال عيسى منك ما يريد .
وأمر عيسى بن على قوماً ، فنادوا فى الطرق : «سفيان بن معاوية قتل
عبد الله بن المقفع » وصار بنو على إلى المنصور يطالبون سفيان بدم ابن
المقفع وأخبره عيسى ما وقع ، فبعث مولاه أبا الخصيب إلى سفيان بكتاب
يقول له فيه :

— يا ابن معاوية قد وجهت إليك بأبى الخصيب ، فإن كان ابن
المقفع حيًا ، فادفعه إليه وأنت على عملك ، وإن لم تدفعه إليه ، فقد أمرته
بعزلك وبمملك .

فقال سفيان لأبى الخصيب :

— ما أقدر عليه . . . ولا أعرف له مكاناً . . . !

فقيده أبو الخصيب كما أمر الخليفة ، وخرج مع سفيان رجال من أهله
فأشار عليهم رجل أن يقابلوا أبا أيوب ، فيكلموه كلاماً حسناً يرهبه
ولا يسرفوا عليه فيحفظوه ، ولا يضعفوا فى مخاطبته ، فيطمعوه ، ففعلوا .

وجاء أبو أيوب إلى سفيان فى سجنه فلما رآه قال له :

— يا أبا أيوب أنا أعلم أنى إن سلمت فبك أسلم ، وإن عطبت فوالله
إنى وأهل بيتى نعلم أنى بك عطبت ، وبرأيك قتلت . . .

فارتاع أبو أيوب ، وقال :

— أنا . . .

فأجاب سفيان :

— نعم ، لأنك تقدر على أن تدفع عني . . .

فقال له أبو أيوب :

— لست أدعى القيام بأمرك . . .

وذهب إلى أبي جعفر المنصور ، فدخل عليه ، وقال :

— وماذا فعل سفيان بن معاوية يا أمير المؤمنين ، وقد كفلك شرًّا من

أبغضته ، ودفع عنك صنيعه بنى عمك ؟

فقال أبو جعفر :

— لقد قتل « أكتب خلق الله » وأحب الأدباء إلى . . .

فأجاب أبو أيوب :

— أونسيت يا أمير المؤمنين ما كتبه ابن المقفع لعبد الله بن علي في

طلب أمانك ، وما اجتراً به على مقامك ، وما دسّه لخلعك والبراءة منك ،

وخروج الأمة عليك ؟

فقال أبو جعفر :

— لكن أدبه يشفع له ، وسيرته في الناس تستوجب له المغفرة ، وإني

لأحله من تقديري أعظم محل .

فقال أبو أيوب :

— إن الخيرة لك يا مولاي فيما وقع ، والسياسة لا تعرف شفيعاً من الأدب والعلم ، بل استغلا لألأدباء والعلماء فيما يريد السياسيون ، وتنكيلاً بهم عند ما يخافون منهم خطراً على ما أوتوا من عزة وجاه وسلطان ، وقد آتاك الله ما ليس لأبناء عمك ، وما يحفز فيهم الطمع ، فعلام تأسى على كاتبهم وتغضب لذهاب صنيعتهم وقد كفاك الله شره . !

فأمسك المنصور عن عقاب سفيان ، ثم أطلقه ، وأعادته إلى عمله ، وذهبت نفس ابن المقفع^(١) ضحية الحسد والحقد والسياسة وضغائن الأمراء .



(١) اختلف الرواة في سنة قتل ابن المقفع والارجح أنه قتل حول سنة ١٤٥هـ لأن سليمان بن علي طالب بدم ابن المقفع ، وقدمات سليمان سنة ١٤٣هـ على ما ذكره الطبري . أما ولادة ابن المقفع فالأرجح أنها حول سنة ٨١ أو ٨٢

قائد العصب الذهبي

هو أبو مسلم الخراساني — وأي قائد هذا
الذي قوض دولة ، وشيّد دولة ، وكانت له
منزلة عظيمة عند الخلفتين أبي العباس ،
والمنصور ، ولكن ذلك لم يشفع له حين
خفى المنصور بأسه ، وخاف غدره وطعمه
في الملك والسلطان ، وهذه القصة تكشف لنا
عن الحياة السياسية لهذا القائد بعد أن استتب
الأمر للعباسيين . وهي مأساة تاريخية فذة

وجلس أبو جعفر المنصور على وسادة في مضربه بالزومية — من المدائن —
ومعه وزيره أبو أيوب سليمان ، وحوله بعض خاصته ، وقد سقط بين
الاستبداد برأيه في قتل أبي مسلم الخراساني ، والمشورة فيه . ثم قال لسالم
ابن قتيبة :

— ما ترى في أمر أبي مسلم ؟
— أرى أن يُتجاوز له ويصفح عن ذنبه ، فهو قائد دولتك ،
وزعيم دعوتك ! . . .

— ولكنه سيفٌ يخشى غدره ، ولا يؤمن جانبه . !
وأدرك سالم ما يريد المنصور فقال :

— نعم يا أمير المؤمنين ، ولا يصلح سيفان في غمد ، ولا إلهان
في أرض . . .

— صدقت . . . ثم ماذا ؟ . . .

— ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . . .

— حسبك يا ابن قتيبة . لقد أودعتها أذنًا واعية ، والله لا يكون فيها
إلا إمام واحد . . .

ثم نظر المنصور في كتاب ورد إليه من أبي مسلم يعاتبه فيه ، ويهدده
بالخروج عليه ، ودفعه إلى وزيره أبي أيوب ، وهو يقول :

— يمينُ علينا ابن الخبيثة بأن أقام سلطاننا ، وعرفنا إلى من جهلنا ،
وجرد السيف في خدمتنا ، حتى استذلَّ التوبة واستنكر الرحمة ، وأبغض
المعذرة ، وقتل ستمائة ألف صبراً . والله لو كانت مكانه أمة سوداء لفعلت
مثلاً فعل . . . قتلني الله إن لم أقتله .

وتناول أبو أيوب الكتاب وقرأه ، وتمتم بعبارة غير مفهومة ثم قال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون . طلبتُ الكتابة حتى إذا بلغت غايتها ،

فصرت كاتباً للخليفة ، وقع هذا بين الناس . . . !

فقال المنصور :

— أوتنسى تأييده سرّاً لرأى أبي سلمة الخلال في مساعدة العلويين

علينا ، وأخذهم الخلافة دوننا ، حتى كاد يستفحل أمرهم ، ويشتد خطبهم ،

ثم ألا ترى كيف فتن الناس بنفسه ، وبهرم بجرأته ، واستكثر من شيعته ،

وظهرت في خراسان طائفة المساهمية تقول بخلافته ، وتؤمن بإمامته .
— ولكنني أخشى يا أمير المؤمنين أن يثور عليك أصحابه إن قتلته .
— لا تخف إذا آلت لنا الغلبة عليه ، وقديماً عبد الناس الغالب
وخدموا صاحب الجاه والمال .
— إن أصحابه يؤثرونه على كل شيء سواه . والله ما أرانا نسلم . . !
— لا شيء يؤثره الناس غير المال . . . سنوزعه عليهم ، ونكفي منه
طمعهم ، ونشتري به أنفسهم ، فاحتل عليه حتى يأتي إلينا .

واحتال أبو أيوب على أبي مسلم حتى استقدمه ، وكان قد همّ بالعودة
إلى خراسان بعد انتصاره على « عبد الله بن علي » ، وأقبل على (الرومية)
ومعه صحبه ورجاله ، فأسرع أبو أيوب إلى أبي جعفر المنصور وقال له :
— هذا الرجل يدخل عليك العشيّة فماذا أنت صانع ؟
— أريد أن أقتله حين أراه . والله إن ملأت عيني منه لأقتلنه . !
— أنشدك الله ألا تفعل ، فإنه يدخل ومعه الناس ، فإن قتلته لم آمن
البلاء ، لكن إذا دخل عليك ، فأذن له أن ينصرف ليستريح ، فإذا غدا
عليك رأيت رأيك فيه ، وأنزلت به ما تريد . . .
فلما كانت العشيّة أذن لأبي مسلم بالدخول ، فرآه المنصور فنهض له من
مجلسه وعانقه طويلاً وأكرمه ، ورحّب به وأجلسه ، وبعد حديث ودي
قصير قال له :

— يا عبد الرحمن .. إن للحرب بلاء ، وللسفر عناء ، والطريق مشقة ،
فاذهب وأرح نفسك الليلة ، ثم اغد على في الصباح .

— فانصرف أبو مسلم وانصرف الناس ، ولكن لم ينصرف عن
المنصور حقه عليه وما أضمره من الغدر به ، والفتك بنفسه ،
وشغلته هذه الحال طول الليل فلم يهدأ له فكر ، ولم يغمض له جفن ، ولم
يطمئن به مضجع ، حتى إذا فنى الليل ، واصفر وجه الأفق وأطلت الشمس
من المشرق ، جلس المنصور في مضربه وبعث إلى وزيره أبي أيوب فأقبل
مسرعا ، وحياء فلم يرد التحية ، فأعادها عليه ، فلم يجبه ، فأوجس منه
خيفة ، وسكت قليلا ثم قال :

— يحفظ الله الأمير . . ما باله لا يجيب . . هل من أمر أهمه ، أو
من حادث أغضبه ؟
فقال المنصور :

— وأى أمر أهمنى غير أمر أبي مسلم ، وأى حادث أغضبنى غير ما فعلته
أمس ، فإنك منعتنى من قتله ، وأسلمته للحياة ، وما كنت آمن ما يحدث
منه إذا بقى ساعة حيئا ، فما بالك ، وقد تركته ليلة كاملة قائما على رجله . !
فسكت أبو أيوب ، وأعجزه الخوف عن الجواب . . و بعد هنية قال
المنصور :

— يا أبا أيوب ادع لى عثمان بن نهيك رئيس الحرس
فدعاه ، فلما حضر قال له :

- كيف بلاء أمير المؤمنين عندك يا عثمان ؟
- إنما أنا عبدك يا أمير المؤمنين . والله إن أمرتني أن أتكىء على سيفي هذا حتى يخرج من ظهري لفعلت . . .
- وكيف أنت إن أمرتك بقتل أبي مسلم ؟
- فوجم عثمان ساعة لم يحجر فيها جواباً ، ولم تتحرك منه شفة ، فقال المنصور في صوت رهيب :
- ما بالك يا عثمان لا تتكلم ، أجبنى ، كيف أنت إن أمرتك بقتل أبي مسلم ؟
- أقتله . . أقتله . . نعم أقتله لأجلك يا أمير المؤمنين ، ولو أمرتني بقتله ثلاث مرات لفعلت . .
- انطلق إذن ، فجننى بأربعة أشداء من وجوه الحرس .
- فانصرف عثمان ، وبعد قليل عاد بأربعة من رجاله ، فقال لهم المنصور :
- كيف أنتم إذا أمرتكم بقتل أبي مسلم ؟
- فقال الجميع في صوت واحد :
- نقتله . . نقتل عدو الله ، وعدو أمير المؤمنين . . !
- فقال المنصور :

— قفوا خلف ستار المجلس ، فإذا دخل أبو مسلم عندي ، فارتفع صوتنا بالحديث ، فلا تخرجوا ، فإذا صفقت بيدي فاهرعوا إليه واقتلوه

فأجابوا :

— سمعاً لأمر المؤمنين وطاعة.

كان أبو مسلم الخراساني قائد الدولة ، وزعيم الدعوة العباسية ، اختاره إبراهيم الإمام رئيساً للشيعة في خراسان ، وكان وقتئذ شاباً يافعاً ، قوى الشكيمة ، واسع الحيلة ، عظيم الدهاء ، فعقد له الإمام الزعامة على لواء يدعى « الظل » وراية تدعى « السحاب » ، وخرج بمن معه إلى خراسان فنزل في دار سليمان بن كثير أحد كبار الشيعة العباسية بقرية سفيذنج سنة ١٢٩ هـ . فاجتمع حوله الناس ، وهزم « نصر بن سيار » عامل الأمويين ، وفتحت جيوشه بلاد الفرس والعراق ، وأقام أبا سلمة الخلال — حفص بن سليمان — والياً على الكوفة بعد فتحها ، فلما وصل إليها أبو العباس وأبو جعفر وآلها فارتين من وجه « مروان بن محمد » بعد قتله لأخيه « إبراهيم الإمام » ، أنزلهم أبو سلمة داراً بالكوفة ، وكنم أمرهم شهرين ، حتى اتهم بأنه يريد بذلك أن يبائع للعلويين دون العباسيين ، لأنه يؤثرهم بالخلافة ، وقد عرفها له أبو العباس بعد فوزه بالخلافة ، فتربص به الدوائر وأراد قتله ، ولكنه كان يخشى مكانته عند أبي مسلم وصداقته له ، إذ كان كاتباً لإبراهيم الإمام ، وهو الذي أشار على الإمام باختيار أبي مسلم لزعامة الشيعة في خراسان .

وذات يوم جلس أبو العباس يسمر مع أخيه أبي جعفر وبعض رجاله ،

فذكروا ما صنع أبو سلمة بهم ، فقال رجل من الحراس :
— ما يدريكم ، لعل ما صنع أبو سلمة كان من رأى أبى مسلم . .
فقال أبو العباس :

— لئن كان ذلك ، فإننا أمام بلاء إلا أن يدفعه الله عنا . .
وتفرق المجلس ، فدعا أبو العباس أخاه أبا جعفر ، وقال له « ما ترى » ؟
فأجابه « رأى رأى أمير المؤمنين » .
فقال أبو العباس :

— ليس منا أحد أخص منك بأبى مسلم ، فاخرج إليه حتى تعلم
ما رأيه ، فليس يخفى عليك لو لقيتته فإن كان يرى ما يراه أبو سلمة ،
أخذنا لأنفسنا ، وإن لم يكن استرحنا من الشك فيه .

وعلم أبو مسلم بخروج أبى جعفر إلى خراسان ، إذ كان أبو الجهم بن
عطية وزير أبى العباس جاسوسه عليه ، وكان يكاتبه سرّاً ، فلما كان
أبو جعفر من « مرو » على بعد فرسخين تلقاه فى الناس ماشياً ، وحياء ،
فقبل يده وركب معه ، حتى دخل المدينة ، فمكث ثلاثة أيام لا يخاطبه فى
شئ . . . وفى اليوم الرابع قال له :

— ما أقدمك يا أبا جعفر إلى خراسان ؟
فتكلم بكلام أدرك منه أبو مسلم ما يريد ، فتظاهر بالنقمة من
أبى سلمة ، وقال :

— فعلها أبو سلمة ، وحقت عليه كلمة الإمام ، فقد أوصاني بقوله :
« وأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمته ، فاقتله » وسأ كفيكموه . . .
ودعا بأحد رجاله ، وأمره أن يذهب إلى الكوفة ، وأن يقتل أبا سلمة
حيث وجده ، فذهب الرجل ، واختبأ له ذات ليلة في الطريق حتى إذا
خرج من قصر أبي العباس بعد سمره قتله ، وفرّ في الظلام ، وشاع في الناس
أن الخوارج قتلوه .

فعل أبو مسلم هذه الفعلة لينفي عن نفسه التهمة التي اتهموه بها من
ميله للعلويين بعد مقتل إبراهيم الإمام ، ولكن الدسائس ضده كانت
تعمل في قصر الخليفة لهدمه هو وأنصاره الفارسيين ، وزاد في ذلك حسد
أبي جعفر له منذ كان والياً على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان في عهد
أخيه ، وليس حوله من الأشياع ما حول أبي مسلم في خراسان وما جاورها ،
وكان يخشى استفحال أمره ، وتفاقم خطره ، فأخذ يتحرش به ، ويدس له
عند شقيقه ، ويحرّضه عليه ، ويقول :

— لست خليفة ، ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ، ولم تقتله .

— وكيف ذلك ؟

— والله ما يعبأ بنا ، ولا يصنع إلا ما يريد .

— اسكت يا أيا جعفر واكتمها . . .

وأراد أبو مسلم الخراساني أن يحج بالناس سنة ١٣٦ فبعث إلى

أبي العباس يستأذنه ، فلما بلغه الكتاب أرسل إلى أخيه أبي جعفر أن
أبا مسلم كتب يستأذن في الحج ، فكتب إلى أنت تستأذن في الحج
بالناس . فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك ، فكتب أبو جعفر
إلى أخيه ما أراد ، فأذن له ، وعلم أبو مسلم أنه سيخرج معه
للحج فقال لخاصته :

— أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا العام . . . ولكن
صبراً . . !

وبلغت هذه العبارة أبا جعفر فدخل إلى الخليفة أبي العباس وقال له :

— أظنني واقتل أبا مسلم . فوالله إن في رأسه لغدرا . . !

— وما تقول في جهاده ، وإقامته لدولتنا ، وقضائه على عدونا .

— والله لو بعثت سنوراً مكانه لبلغ مثلاً بلغ .

— وكيف نقتله ؟ . . .

— إذا دخل عليك أتيت أنا من خلفه ، فضربته ضربة آتت بها

على حياته .

— وكيف تصنع يا أبا جعفر بأصحابه الذين يؤثرونه على كل شيء ، وهم

عشرة آلاف قد جاءوا معه من خراسان .

— لا تخف . . لا تخف . . سيؤول ذلك إلى خير .

— لا . . لا . . يا أخى إننى أخشى شراً . . كفى الآن عن هذا

الأمر . . .

واستمع أبو جعفر لرأى أخيه فكف عن الغدر به ، وسار للحج مع
أبي مسلم الخراساني ، فلما كانا بمكة تقدمه بالناس ، وصار لا يبالي
بأبي جعفر ونفر بعد موسم الحج قبله ، وفي هذا الحين جاء أبا جعفر كتابٌ
بموت أبي العباس واستخلافه مكانه ، فلما بلغ ذلك أبا مسلم كتب إليه
يعزيه بأمير المؤمنين ، ولم يهنته بالخلافة ، ثم لم يذهب للحاق به ، ومقابته ،
فاشتدَّ حقد أبو جعفر عليه ، وقال لوزيره أبي أيوب « اكتب إليه كتاباً
غليظاً » فلما أتاه هذا الكتاب ، عاد فبعث إليه بهنئته ، ثم أقبل عليه في
الأنبار يعتذر له عما فرط منه .

تظاهر أبو جعفر بالرضا عن أبي مسلم ، وقربه وأكرمه ، إذ كان يريد
وقتئذ لمحاربة ابن عمه « عبد الله بن علي » الذي أرد البيعة لنفسه بعد
موت أبي العباس ، فخرج إليه أبو مسلم في جيش كبير وانتصر عليه ،
وأخذ خزائنه ومثاعه ، ولم يبعث بها لأبي جعفر المنصور ، فأرسل إليه
رسولاً يطالبه بها ويحصى غنائمه ، فغضب أبو مسلم وقال :

— أأمين على الدماء ، خائن في الأموال . . ؟؟

وتكلم بكلام شديد في أبي جعفر ، ثم أرسل إليه هذا الكتاب :
« أما بعد ، فإنني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترضه الله على
خلقه ، وكان في محلة العلم نازلاً ، وفي قرابته من رسول الله (ص) قريباً
فاستجھلني بالقرآن ، وحرّفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى

خلقه ، فكان كالذي ولي بغرور . وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ،
ولا أقبل المذرة ، ولا أقبل العثرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم
الله إلى من كان جهلكم ، ثم استنقذني الله بالتوبة . فإن يعفُ فقديمًا
عُرف بالعفو ، ونسب إليه ، وإن يعاقبني فما قدمت يداي . وما الله
بظلام للعبيد .

أرسل أبو مسلم هذا الكتاب إلى أبي جعفر المنصور ، وخرج قاصداً
خراسان يريد الثورة ، وخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن ونزل بالرومية ،
فوصله الكتاب بها فغضب غضباً شديداً ، وأمر أبا أيوب أن يحتال عليه
ولا يدعه يفرُّ فأوفد إليه أبا حميد المروروزي وقال له :

— قل له إن أمير المؤمنين رافع قدره ، وصانع به ما لم يصنع بأحد
إن هو صلح ورجع ، فإن أبي أن يرجع فقل له ، يقول لك أمير المؤمنين
لست للعباس ، وأنا برىء من محمد أن مضيت مشاقاً ولم أطلبك ، ولم
أقاتلك بنفسي ، ولو خضت البحر لخضته ورائك ، ولو اقتحمت النار
لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك .

فذهب أبو حميد ، وأبلغه ، فسخر أبو مسلم من هذا التهديد ، فقال
أبو حميد :

— إنك لم تزل أمين آل محمد يعرفك بذلك الناس ، وما ذخر الله
عنده من الأجر في ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ،
ولا يستهوينك الشيطان .

فأجاب أبو مسلم

- ومتى كنت تكلمنى بهذا الكلام يا أبا حميد ! ...

- إنك دعوتنا إلى هذا ، وإلى طاعة بنى العباس ، وأمرتنا بقتال من خالفهم ، وأهبت بنا من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف بين قلوبنا بدعوتهم ، وأعزنا بنصرنا لهم ، ولم نلق منهم رجلا إلا بما قذف الله فى قلوبنا من جهم . حتى أتيناهم ببصائرنا طائعين مخلصين . أفتريدُ حين بلغنا غاية مُنانا ، ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرّق كلمتنا ، وقد قلتَ لنا من خالفكم ، فاقتلوه وإن خالفكم ، فاقتلوني .

فلما سمع أبو مسلم هذا القول ، خشى الفتنة وأسلم نفسه للقدر . . .

نجحت حيلة أبى أيوب ، وأقبل أبو مسلم إلى المنصور بالرومية ، وكانت سنة ١٣٧ هـ فأكرمه ورحب به ، وأخفى تدبير غدره ، وصرفه فى اليوم الأول للراحة من عناء الحرب ومشقة السفر ، كما أشار عليه وزيره ، ثم كان اليوم الثانى ، فأعدَّ له عثمان بن نهيك رئيس حرسه وأصحابه الأربعة خلف ستار المجلس .

ودخل أبو مسلم على المنصور ومعه سيف وعليه قباء أسود ، تحته ثياب خز ، فسلم وجلس على وسادة لم يكن بالمجلس غيرها ، ووراءه القوم بسيوفهم مختبئين وكان المنصور عابس الوجه ، جامد النفس ، ومرت بينهما

فترة من السكون الرهيب ، ثم نظر المنصور إليه ، وقال :
— أخبرنى يا عبد الرحمن عن نصلين أصبتكما فى متاع عبد الله بن على ؟
— هذا أحدهما معى يا أمير المؤمنين . . .
— أرنيه . . .

فناولهُ أبو مسلم السيف ، فهزه أبو جعفر بيده وقال « هذا سيف
عباسى ، لا سيف مسامى ! » ثم وضعه تحت وسادته ، وأقبل عليه يعنفه ،
ويقول :

— أخبرنى عن كتابك إلى أبى العباس تنهاه عن الموات^(١) أردت
أن تعلمنا الدين ؟ ! . . .

— لا . بل ظننتُ أن أخذه لا يحل ، فكتب إلى ، فلما أتانى كتابه
زدتُ إيماناً بأن أمير المؤمنين وأهل بيته معدنُ العلم .

— ولماذا تقدمتَ أمامى فى طريق الحج ؟ . .
— كرهتُ يا أمير المؤمنين اجتماعنا على الماء فيضرب ذلك بالناس ،
فتقدمتُك التماس المرفق .

— ولماذا قتلتُ سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهو شيخ نقبائنا
قبل أن ندخلك فى شىء من هذا الأمر ، وقد أنزلك بداره فى خراسان ؟
— أراد الخلاف ، وشككتُ فيه ، فقتلته . . .

(١) الموات الأرض الخالية من السكان التى لا ينتفع بها أحد . وهو يريد بأبى العباس
سلفه وشقيقه أمير المؤمنين عبد الله بن محمد .

— فقولك حين أذاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن
تنصرف إلىّ ، تقدم فترى من رأينا ، ومضيت ، فلا أنت أقمت حتى
نلحقك ، ولا أنت رجعت إلينا .

— منعنى من ذلك ما أخبرتك به من طلب المرفق بالناس ، فقلتُ
نأتى الكوفة ، فليس عندى لأمر المؤمنين خلاف .

— وجارية عبد الله بن على ، أردت أن تتخذها لنفسك ؟ . .
— لا ، ولكنى خفتُ أن تضيع ، فحملتها فى قبة ، ووكلت بها
من يحفظها .

— وما رأيك فى مراغمتك وخروجك إلى خراسان . . أكنت تريد
أن تفرّ من وجهى ؟
— ظننتُ أن أمير المؤمنين قد دخله شيء . فقلت آتى خراسان ،
فاكتب إليك بعذرى .

— وما قولك فى أبى سلمة الخلال . . ألم يصدر عن رأيك فى تأييده
للعويين ؟ !

— يا أمير المؤمنين لم يقال لى هذا بعد حسن بلائى فى دولتك ،
وجهادى فى نصرة آلک ، وفتكى بجيوش أعدائك ؟

— يا بن الحبيثة ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت مثلاً
فعلت . وإنما بلغت الذى بلغته بجِدِّنا وبريحننا . ولو كان ذلك اليك ما
أتيت شيئاً ولا أصبت فتيلاً . . ألسن الكاتب إلىّ تبدأ بنفسك ،

والكاتب تخطب أمينة بنت علي ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس . لقد ارتقيت مرتقى صعباً ! . . .

— عفواً يا أمير المؤمنين ومعذرة .

— لا عفوَ اليوم . . . قتلني الله إن لم أقتلك . . .

فأقبل عليه أبو مسلم يعتذر ، وسقط على قدمه يقبلها ، فركله بها ، وهو يقول والله مازدتني إلا غضباً ، ثم صفق بيديه .

سمع عثمان بن نهيك وصحبه تصفيق أبي جعفر ، فخرجوا من خلف الستار كالذئاب شاهرين السيوف ، فنظر إليهم أبو مسلم ، وقال :

— واتعسأه . . أنا أبو مسلم . . .

فقالوا :

— بل أنت أبو مجرم . . .

فصاح :

— العفو .. العفو . . يا أمير المؤمنين أنشدك الله .

وتعلق به ، واستجار بعطفه ، فدفعه المنصور ، وصرخ في رجاله صرخة

مرعبة :

— اضربوا قطع الله أيديكم . . .

فضربه عثمان ضربة خفيفة قطعت نجاد سيفه ، وجد أصحابه ، فصاح

أبو مسلم :

- استبقني لعدوك يا أمير المؤمنين . .
- لا أبقاني الله إذن . وأى عدو لي أعدى منك ؟ .
- ربّاه ألا قوة ، إلا مغيث . .
- وهمّ أبو مسلم أن يأخذ سيفه من تحت وسادة المنصور ليدافع به عن نفسه فصرخ مرة أخرى في رجاله صرخة هائلة :
- اضربوا قطع الله أيديكم . . .
- فضربه أحدهم فقطع رجله وأعتوره الباقون بالسيوف ضرباً وطعنات حتى قتلوه وذبحوه وأدرجوه في البساط . . (١)
- وبعد قليل أذن لعيسى بن موسى — أحد الولاة — بالدخول على أمير المؤمنين ، وكان عيسى يعرف مكانة أبي مسلم ، ويقدر بلاءه في سبيل الدعوة العباسية . فلما دخل سأل عن أبي مسلم ، فقال المنصور :
- كان ها هنا آنفاً . . .
- يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعة أبي مسلم لك ، ورأى الإمام إبراهيم فيه . .
- يا أنوك ، والله ما أعلم في الأرض عدواً لي أعدى منه . . هاهو ذا في البساط
- وفتحوه له ، فلما نظر عيسى إلى جثته انخلع وارتاع وقال :
- إنا لله وإنا إليه راجعون

(١) قتل أبو مسلم لحس بقين من شعبان سنة ١٣٧ هـ

فقال المنصور : — خلع الله قلبك ، وهل كان لكم رأى أو سلطان ،
أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ !

ثم دعا المنصور بجعفر بن حنطة ، فدخل عليه فقال له :

— ما تقول فى أبى مسلم ؟

— إن كنت أخذت يا أمير المؤمنين شعرة من رأسه ، فاقتل ثم اقتل .

— وفقك الله . . .

وأمره بالقيام ، والنظر إلى أبى مسلم مقتولاً فلما رآه قال : « عدّ هذا
اليوم يا أمير المؤمنين أول يوم فى خلافتك » ثم دعا المنصور اسماعيل
ابن على ، فدخل وقال : — يا أمير المؤمنين إني رأيت فى ليلتى هذه
كأنك ذبحت كبشاً ، وإني توطأته برجلي .

فضحك أبو جعفر ضحكة عالية ، وقال : . نامت عينك يا أبا الحسن .
هذا هو الكبش ، قم فصدّق رؤياك ، فقد قتل الله الفاسق .

فقام اسماعيل إلى الموضع الذى كانت فيه الجثة وتوطأها برجله . . . !
ثم دعا المنصور أبا اسحاق رئيس حرس أبى مسلم فقال له :

— أنت المتابع لعدو الله على ما كان أجمع ؟ . .

فسكت ، وأخذ يلتفت يمينا وشمالا حذراً وخوفاً فقال المنصور :

— لا تخف تكلم بما تريد ، فقد قتل الله عدوه ! .

وأمر باخراج جثته إليه ، فلما رآها خرّ ساجدا وأطال السجود ،

فقال المنصور : — ارفع رأسك وتكلم . . .

فقال اسحاق : — الحمد لله يا أمير المؤمنين ، فقد آمننا الله بك ، وما
كنّا لنأمن أباً مسلماً يوماً واحداً ، وما أحببته ، ولا جئته منذ صحبتته مرة
إلا وقد أوصيت وتكفنت .

فأجازته المنصور ، ودعا غيره من رجال أبي مسلم ، فتكلموا بكلام مثله ،
فأمر بتوزيع الأموال عليهم وعلى جنودهم ، ففرحوا بها ، وأنساهم العطاء ،
واجب الوفاء وخرجوا من عنده وهم يهتفون بفضله ، ويشهدون بعدله ،
وقد باعوا قائدهم وزعيمهم بالدراهم . . . ! !



في التحسين

انتقل صراع العباسيين من أجل الخلافة بعد
الأمويين إلى العلويين من أولاد علي بن أبي
طالب ، ف وقعت بين الفريقين حروب ووقائع
وهذه القصة تصور جانباً من هذا الصراع ،
وتقف القارئ على حجة أبي جعفر المنصور في
مناقضتهم ، في حوار كتابي بينه وبين محمد بن
عبد الله العلوي وهو من أبرع أمثلة الحوار
الأدبي السياسي .

وحجج أبو جعفر المنصور حتى إذا وصل « الربذة » بالقرب من المدينة
بعث في طلب محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن العلوي^(١) فلم يجدهما ،
وكانا قد خرجا عليه ، وأفلتا منه فسارت رسله في أعقابهما لاقبض عليهما ،
والقضاء على دغوتهما بالخلافة لأولهما ، وتبعهما في ذلك شعبة كثيرة في المدينة
وخرسان كانت تشايع العلويين سرّاً وجهراً ، وتراهم أولى بالأمر من بني
العباس ، فنقم عليهم أبو العباس عبد الله ، ثم نقم عليهم من بعده أبو جعفر
المنصور ، واستحل دماءهم ، كما استحل دماء الأمويين .

(١) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

ولما تعذر عليه القبض على زعيمى العلويين محمد وإبراهيم ، اشتد غضبه ، وسجن بعض آلها ، وأخذ اليهود والأيمان على البعض الآخر ممن كانوا لا يظهرون الدعوة ، وكان فيهم محمد بن عمرو^(١) والد زوجة إبراهيم فاستدعاه إليه ، وقد علم أبو جعفر أن ابنته كانت تتخضب وتتعطر ، ثم حملت ، فلما دخل عليه رآه مغضباً ، فحياه ، فلم يرد التحية ، ولم يدعه للجلوس ، ثم نظر إليه ، وقال :

— إيه يا حانث . . !

فقال ابن عمرو :

— سبحان الله . . والله لقد عرفتني بغير ذلك صغيراً وكبيراً .

أبو جعفر :

— ألم تعطني الأيمان ألا تغشني ، ولا تمالي على عدوا ؟ !

ابن عمرو :

— بلى يا أمير المؤمنين ، قد فعلت .

أبو جعفر :

— أو لم تعاهدني أن تدلني على زوج ابنتك إبراهيم إذا علمت مكانه ؟

ابن عمرو :

— بلى يا أمير المؤمنين ، وما علمت .

أبو جعفر :

(١) هو محمد عمرو بن عثمان أخو بني حسن لأهمهم وأهمهم جميعاً فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب .

— وقد أقسمت لى مراراً أن ابراهيم لا يدخل بيته ، ولا يلم
بزوجه أبداً ... !

ابن عمرو :

— نعم ولم أحنث فى أيمانى ، ولم أنقض عهدى يا أمير المؤمنين .
أبو جعفر :

— إذن فمن حملت ابنتك ؟ !

ابن عمرو :

— إنها حملت من زوجها ، وقد ظننت أنه ألم بها فى غفلة منى .
أبو جعفر :

— أو لم تدخل على ابنتك متخضبة متعطرة ، ثم تراها حاملاً ، فلا
يروّعك حملها ... فأنت إما أن تكون حائثاً أو ديوثاً ، والله إني
لأهم بزوجها ... !

ابن عمرو :

— أما أيمانى فهى على أن كنت دخلت لك فى غش علمته . وأما
ما رميت به هذه الجارية ، فإن الله أكرمها عن ذلك بولادة رسول الله
(ص) إياها

أبو جعفر :

— إخساً . . فوالله ما صدقت قولاً ، ولا وفيت عهداً ولا حفظت

يميناً . . .

ثم نظر إلى رجاله ، وقال :

— خذوه فغلوه ثم شقوا ثيابه ، ثم اضربوه مائة وخمسين سوطاً .
فأخذَه الجلادون ، وفعلوا ما أمر به أمير المؤمنين ، وبينما كانوا يضربونه
أصاب سوطٌ وجهه ، فقال ابن عمرو :

— ويحكم . . . ويحكم كفوا عن وجهي ، فإن له حرمةً من
رسول الله (ص)

فقال أبو جعفر :

— لا تسمعوا له . . بل الوجهَ الوجهَ ، والرأسَ الرأسَ . . !
فضربه الجلادون على وجهه ورأسه ثلاثين جلدة ، ثم دعا أبو جعفر
بساجور^(١) من خشب ، فوضع في عنقه ، وشدت به يده ، وأخرج
مشهراً به في الأسواق ، فصادفه في الطريق عبد أعتقه ، فقال « بابي
أنت وامي » وخلع رداءه ، وألقاه عليه ، فقال ابن عمرو :

— والله لشفوف جسمي أشدُّ عندى من الضرب الذي نالني
ثم أخذ إلى السجن ، فألقى فيه مع آل الحسن

كان العباسيون حينما اضطرب أمر بني أمية وقبل أن يظهروا عليهم قد
بايعوا العلويين من أبناء فاطمة في ليلة تشاور فيها بنو هاشم بمكة فيمن
يعقد له بالخلافة . وقد وقع الرأي على مبايعة محمد بن علي بن الحسين
المعروف بابن الحنفية ، فلما جاءت الوفاة أوصى بها لابنه عبد الله بن محمد
فبايعه العلويون والعباسيون ولما سمى سليمان بن عبد الملك أوصى بها لابن

(١) الساجور خشبة تعلق في عنق الكلب ، وتطلق على القيد

عمه محمد بن علي والد أبي جعفر وأبي العباس . لكن العلويين عادوا يطالبون العباسيين بالخلافة ، وكان في مقدمتهم محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، وأخوه إبراهيم وانضم إليهما خلق كثير .

هال ذلك أبا جعفر المنصور ، وحشد عزمه وجهوده للقضاء على هذه الدعوة ، ورأى أن يتعقب زعماءها في كل مكان ، فبث العيون في الحجاز والعراق وخراسان ثم سافر للحج ، ونزل بالربذة بالقرب من المدينة ، وبعث في طلب عبد الله بن الحسن والد محمد وإبراهيم ، فلما حضر قال له :
— يا أبا محمد قد علمت ما أعطيتني من العهود والمواثيق ألا تبغى سوءاً ؟ ولا تضمر لي كيذاً .

فقال عبد الله :

— فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين .

قال أبو جعفر :

— فأين ابنك محمد وإبراهيم ؟

فقال عبد الله :

— والله لا أدري ، ولعلهما منهومان بالصيد ، وهما لا يشهدان منذ

حين مع أهلها خيراً ولا شراً ؛

قال أبو جعفر :

— فأنت وآلک محبوسون حتى تدلوا عليهما . . . !

وأمر أبو جعفر ، فوضعت الأغلال في أعناقهم وأيديهم وأرجلهم . . .

فالتفت عبد الله إليه وقال :

— يا أبا جعفر والله ما فعلنا بأسرائكم هكذا يوم بدر^(١) . . . !
فقال أبو جعفر :

— إخسأ . . لا رُحمت . .
وتفل عليه . . . !

سجن المنصور بنى حسن بالمدينة ، ثم نقلهم إلى العراق ، وكانوا ستة عشر رجلا ، وكان السجن هناك غرفة مظلمة تحت الأرض لا تدخلها الشمس تدعى « المطبق » لا يعرفون فيها أوقات الصلاة إلا بأحزاب القرآن يقسمونها على أنفسهم يقرأونها ويستعينون بذلك في معرفة هذه الأوقات . وكان إذا مات أحدهم ترك معهم أياماً حتى يجيف ، وقدمت عبد الله بن الحسن ، وأخوه إبراهيم على هذه الصورة .

وبقى من عاش منهم في السجن أربع سنوات أو تزيد . وكان إبراهيم ابن عبد الله ، وأخوه محمد في تلك المدة قد جيشاً جيوشاً وحاربوا أبا جعفر المنصور ، فظهر أبو جعفر على إبراهيم ، وقتله وبدد شمله . أما محمد فقد طال أمره ، فهادنه أبو جعفر وبعث إليه بخطاب يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . . إنما جزاء الذين يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ . ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ

(١) كان العباس بن عبد المطلب جد العباسيين قبل أن يسلم ، في جيش قريش الذي حارب المسلمين يوم بدر

في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » الخ
وأخذ يعده في هذا الكتاب إذا تاب ورجع أن يؤمنه ، ويطلق سراح من سجنهم من آله ، ويعطيه ألف ألف درهم .
فأجابه محمد بخطاب يدعو إلى أتباعه ، ويذكره بفضله وحق العلويين في الخلافة ويقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله . إلى عبد الله بن محمد . .
« نطسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون »
« وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت على ، فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الحق بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا علياً كان الوصي ، وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته ، وولده أحياء ، ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا ، وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء الأعماء ، ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل .
ونحن بنو أم رسول الله (ص) فاطمة بنت عمرو في الجاهلية ، وبنو ابنته

فاطمة في الإسلام دونكم . إن الله اختارنا وإختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد (ص) ، ومن السلف أولهم إسلاماً على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة . وأول من صلى بالقبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام حسن وحسين سيدي شباب أهل الجنة .

« ولقد ولد هاشم علياً مرتين ، وعبد المطاب ولد حسناً مرتين ، ورسول الله ولدني مرتين من قبل حسن وحسين ، وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، لم تعرق في العجم ، ولم تنازع في أمهات الأولاد ، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في الجنة والنار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وأهونهم عذاباً في النار ، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار .

« ولك الله على أن دخلت في طاعتي ، وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أَوْحَقاً لمسلم أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى الأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي ، فأى الأمانات تعطيني : أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله ، أم أمان أبي مسلم ! »

قرأ أبو جعفر هذا الخطاب فحنق واشتد غضبه ، فقال له وزيره أبو أيوب :

— دعني يا أمير المؤمنين أجبه ، على ما افترى .

فقال أبو جعفر :

— يا سليمان ليس ذلك إليك إذا نحن تقارعنا بالأحساب ، فدعني وإياه . . . !

ثم كتب له أبو جعفر هذا الكتاب النادر في أسلوبه وقوة محتاجته ، وبراعة دفاعه ، فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد ، فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك ، فاذا جُلُّ نحرِكَ بقراءة النساء لتضلَّ به الجفأة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة الأولياء ، لأن الله جعل العم أباً وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهم كانت آمنة أقربهم رحماً وأعظمهم حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله خلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

« وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لابنتاً ولا ابناً . . . ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة . ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . قال الله عز وجل (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين) .

« ولقد بعث الله محمداً عليه السلام ، وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتكَ الأقربين) فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنين^(١)

(١) يشير إلى عميه حمزة والعباس .

أحدهما أبي . وأبي اثنان ^(١) أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً .

« وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار . وليس في الكفر بالله صغير ، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

« وأما ما نخرت به من فاطمة أم علي ، وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلد هاشم إلا مرة ولا عبد المطلب إلا مرة .

« وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأباً ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك نخرت على بني هاشم طراً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ونخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولاً وآخرأ إبراهيم ^(٢) ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما خيار بني أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد . وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن حسين وهو لأم ولد ، وهو خير من جدك حسن بن حسن . وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي ، وجدته أم ولد ،

(١) يشير إلى صفيه الآخرين أبو طالب ، وأبو لهب .

(٢) ابن مارية القبطية

ولهو خير من أبيك . ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ، ولهو خير منك
« وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى
يقول في كتابه (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) ولكنكم بنو ابنته ،
وإنها لقربة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ولا تجوز
لها الإمامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها
نهاراً ، ومريضها سرّاً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما
ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم
والخال والخاله لا يرثون .

« وأما ما فحرت به من على وسابقتها ، فقد حضرت رسول الله صلى الله
عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل ، فلم
يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها .
أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة
والزبير . وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم
طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل
الحكومة ، ثم حكم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا
على خلعه ، ثم كان حسن فباعها معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز ،
وأسلم شيعته بيد معاوية ، ورفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير
ولائه ولا حله ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه !

« ثم خرج عمك حسين بن عليّ على ابن مرجانة ، فكان الناس معه
عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوك وصلبوكم

على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان وقتلوا يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطاء في الحامل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم ، وأدركننا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنيننا سلفكم وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت . ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتجبنا له وذكروناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه .

« ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية ، زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته فنارعنا فيها أبوك ففضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل صر إلى ربه ولم يتقرب إليه إلا بأينا حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته وميراث النبي له ، والخلافة في ولده . فلم يبق شرف في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه .

« وأما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب

وعِياله وينفق عليهم للأزمة التي أصابته ، ولو لا أن العباس أُخرج إلى
بدر كرهاً لمات طالب وعقيل جوعاً والمسا جفان عُقبة وشَيْبة . ولكنه
كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة ،
ثم فدى عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا . وقد علناكم في الكفر
وفديناكم من الأسر وحُزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء
وطلبنا بشاركم فأدر كنّا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم . والسلام
عليك ورحمة الله . »

بعث أبو جعفر إليه بهذا الخطاب ، ثم شفّعه بجيش ظهر على جيش محمد
وهزمه وقتله في سنة ١٤٥ هـ ، واستتب الأمر بعده للعباسيين ! ..



انتقام

هو انتقام وزير من وزير ، وسياسى من
سياسى . فهذا الربيع بن يونس وزير أبى
جعفر المنصور يحقد بعد زوال عهده على أبى
عبد الله معاوية وزير الخليفة المهدى وينقم عليه ،
ويدبر له ما تراه فى هذه القصة السياسية . ١

ودخل المهدى على أبيه الخليفة المنصور فى قصر الخلد ، فوجده صامتاً
مفكراً ، فأراد الخروج ليتركه فى صمته وتفكيره . واستأذن فى ذلك ، ولكن
المنصور ناداه وأجلسه بين يديه ثم نظر إليه فى هدوء وقال له :
— يا أبا عبد الله إني عزمْتُ أن أوليك الخلافة ، وأخلعها عليك ،
فقد مرضتُ وكبرت ، وأصبحت أؤثر الراحة على مباشرة الأعمال والنظر
فيها واحتمال أعبائها .
فسكت المهدى .

فأعاد المنصور على ولىَّ عهده القول ، فأجابه المهدى :
— دعنى أفكر يا أمير المؤمنين فإنى لا أستطع أن أجيب الآن عن
هذا الأمر . ثم انصرف إلى رائده وكتبه أبى عبيد الله معاوية (١)

(١) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين . وقد ضمه
المنصور إلى المهدى حين أنفذه إلى الرى . وبقي فى خدمته إلى ما بعد ولايته الخلافة ،
وأصبح كاتبه ووزيره .

مستبشراً بذلك ، وأنبأه بما عرضه الخليفة ، فقال له :
— اتق الله ، ولا تُظهر لأُمير المؤمنين قبولاً . وإذا عاودك ، فقل له :
(لا والله لا أتعرض لهذا الأمر ما أبقى الله أُمير المؤمنين) فإنه أراد أن
يسبرك بما عرضه عليك .

وعاد المهدي إلى أبيه فقال له المنصور :
— يا بني هل فكرت فيما سألتك فيه ؟
فأجاب المهدي :

— ما بي قوة على هذا الأمر . ولا والله لا أتعرض له ما أبقى الله أُمير المؤمنين
فقال المنصور :

— سبحان الله . من صدك عنه ؟ !
— لا لا . . أعفني يا أباي . فإني لا أنهض به ما بقيت ، وأرجو أن
يطيل الله عهدك ، ويمتدنا بحياتك .
— أو شاورت في ذلك أحداً ؟ ؟

وكرر المنصور السؤال عليه ، فقال المهدي :
— شاورت كاتبِي ورائدِي أبا عبيد الله معاوية ، فكان من الناصحين .
فأطرق المنصور لحظة ، ثم قال .

— على معاوية . . !

فلما حضر قال له :

— ما هذا الذى ناظرَكَ فيه المهدي يا معاوية . ولماذا رأيت ألا يقبل ؟
فأجاب معاوية :

— أأصدق أمير المؤمنين ، وأنا آمن ؟ . .
قال له :

— هات . . ولم لا تصدقنى . .
فقال معاوية :

— إنه والله ما عرضتَ عليه هذا يا أمير المؤمنين وأنت تريد أن
توليه الخلافة ، وإنما أردت أن تختبر عقله ، وتسبر خلقه ، وما كنت لتطيب
نفساً بترك ما أنت فيه من هذا الأمر .
قال المنصور :

— وكيف توهمت ذلك ؟ . . .
فقال :

— لأننى سمعتك يوماً تقول إنى أستيقظ بالليل ، فأدعو بالكتب ،
فأضعها بين يدي ، وأدعو بالجارية وأمرها أن تمرُخ^(١) ظهري ، فتفعل
وأنا مقبل على كتبى وتديري والنظر فى أمورى ، فعلمت أنك لا تدع
شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع ، وتؤثر به غيرك .
فقال المنصور :

(١) مرخ الميء دهنه .

— ما كنت أرى أن أحداً يتفقد ما تفقدته . وقد أصبت والله الرأى
وأحسن القول بارك الله عليك .

مضت بضعة أشهر على هذا الحادث ، ثم كان أن مرض أبو جعفر بعلة
في معدته ، فكان لا يستمرئ طعاماً ، وحرار أطباؤه في علاجه ،
واستحضروا له بعض أطباء الهند . وفي ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ أراد أن
يخرج إلى بيت الله الحرام عسى أن تظله رحمة الله في أرضه المقدسة ، فتخف
آلامه ، ويزول عنه دأؤه ، وخرج مع حاشيته يريد مكة ، وخرج ولئ
عهده المهدي يودعه ، فلما حان الرحيل عن بغداد نظر إلى المهدي ، وقال :

— يا بني إني ولدت في ذى الحجة ، ووليت الخلافة في ذى الحجة .
وقد هجس في نفسي أني أموت في ذى الحجة من هذه السنة . وقد حداني
ذلك على الحج ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل
لك في أمرك توفيقاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة .

فقال المهدي :

— غافى الله أمير المؤمنين ، وأبقاه للدين والدنيا .

قال المنصور :

— يا بني إني جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ،
واصطنعت لك من الموالى ما لم يصطنعه أحد من بني أمية و بني العباس ،

وبنيت لك مدينة^(١) لم يكن في الإسلام مثلاً . ولست أخاف عليك إلا
أحد رجلين : عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى ،
فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته ، فأخرجته من قلبك . وأما عيسى
ابن زيد ، فانفق هذه الأموال ، واقتل هؤلاء الموالى ، واهدم هذه المدينة
حتى تظفر به ، ثم لا ألومك » .

وخرج المنصور قاصداً الحج مع وزيره^(٢) الربيع بن يونس وحاشيته حتى
إذا كان في طريق مكة نزل بيتاً أعد له ، وبينما هو جالس فيه نظر إلى
صدر البيت ، فإذا مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من حرّ المنية مانع
فظن أن بعض أعدائه قد دس له ذلك ، فدعا المتولى شؤون هذا البيت
وقال له :

— ألم آمرك ألا يدخل المنزل أحد من الدعار^(٣) . . . ١٠٩

(١) هي مدينة بغداد بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ واتخذها عاصمة للخلافة العباسية .
وكانت قبل ذلك الكوفة ثم الأنبار ثم الهاشمية . وقد بنى المنصور ببغداد قصر الخلد ،
وقصر الذهب ، وقصر الرصافة . ثم ابنتى خلفاؤه قصر زبيدة . وقصر التاج ، وقصر
الفردوس وقصر المعتصم وقصر جعفر البرمكي الذي سمى فيما بعد قصر المأمون .

(٢) الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان .
وقد ولاه المنصور الوزارة . وولى ابنه الفضل الحجابة . وقد أكرمه وقدمه . وكان
أكبر وزرائه (٣) الدعار جمع داعر وهو الخبيث الفاجر .

فقال :

— يا أمير المؤمنين . والله ما دخلها أحد منذ فُرغ منها .

قال :

— فاقراً ما في صدر البيت .

فقال الرجل :

— إني لا أرى والله شيئاً مكتوباً في صدر البيت .

فدعا المنصور كبير حجابيه ، وقال له :

— إقرأ ما في صدر البيت من الشعر المكتوب .

قال :

— لا أرى شيئاً مكتوباً يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور :

— سبحان الله . . إني أرى أمامي بيتين من الشعر .

ثم أملى على الحاضرين هذين البيتين ، فكتبوها ، وأيقن أنه واهم . . !
وبعد قليل قال لأحد مواليه اقرأ شيئاً من القرآن الكريم يشوقني إلى

لقاء الله تعالى فقرأ : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ! !

فغضب المنصور ، وقال له : « يا أحمق أو ما وجدت شيئاً تقرأه إلا

هذه الآية » ؟ !

فقال المولى : « محي القرآن من قلبي الآن إلا هذه الآية » . . . فأمر

المنصور بأن يسجن ويوجأ فكاه عقاباً له . ثم تطير من حاله ومن المنزل

الذى نزله ، وأمر بالرحيل فأركبوه فرساً ، فلما خرج مرّ بواد ، فسأل :

— ما اسم هذا الوادى ؟

فقال له :

— اسمه سقر . . . !

قال :

— أعوذ بالله . . . !

وبينما هو راكب كبت به الفرس ، فوقع على الأرض ، وحمله إلى
مضرب نصبوه له ، فنام فيه ليلته ، ثم أصبح ، فدعا وزيره الربيع بن
يونس ، فدخل عليه فوجد وجهه باهتاً ، فقال له المنصور :

— يا ربيع . إني رأيت رؤيا أفزعتنى . . .

قال الربيع :

— خيراً إن شاء الله يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور :

— رأيت رجلاً يقف أمامى وينشدنى شعراً يذكر فيه نهاية أجلى .
وما أحسبني إلا ميتاً فى مرضى هذا ، وإني أريد أن تؤكد البيعة لولدى
محمد المهدى .

قال الربيع :

— بل يُبقى الله أمير المؤمنين ، ويبلغ المهدى محبتك الدائمة فى حياتك .

فقال المنصور :

— كلا ، فقد دنت منيتي ، واقتربت نهايتي ، واستقبلت آخرتي ،
وهأنذا أخرج من الدنيا وغرورها ، وما حملتني من ذنوب وآثام
ثم سكت وثقل لسانه ، وأغمض عينيه ، وأخذ يردد :
— بادرنبي إلى حرم ربي وأمنه ، هارباً من ذنوبي وإسرافي على نفسي .
ولم يزل المنصور كذلك حتى بلغ بئر ميمون ، فقال الربيع :
— هذه بئر ميمون يا أمير المؤمنين ، وقد دخلت الحرم
فقال :

— الحمد لله . . .

وكانت كلمته الأخيرة ، ثم لفظ النفس الأخير . . .

فاضت روح المنصور في طريق مكة ، فأخفى وزيره الربيع موته ،
وألبسه الطويلة والدراعة ، ووضع على وجهه كلاً رقيقة يرى منها شخصه ،
ولا يفهم أمره ، ثم دخل فوقف منه بالموضع الذي يوهم فيه أنه يخاطبه ،
ثم خرج إلى الناس ، فقال لهم :

— إن أمير المؤمنين مفيق بحمد الله ، وهو يقرئكم السلام ، ويقول
لكم : إني أحب أن يوكد الله أمركم ، ويكبت عدوكم ، ويوصيكم أن تجددوا
بيعة أبي عبد الله المهدي من بعده .
فأجاب القوم :

— وشفى الله أمير المؤمنين ، ونحن إلى ما يحب أسرع ، وبما يوصى
فاعلمون .

فعاد الربيع ووقف من المنصور بالموقف الأول كأنما يخاطبه ، ثم خرج
إلى القوم ، وقال :

— هلموا إلى البيعة . . .

فأقبلوا كلهم على مبايعة المهدي ، ولما تمت البيعة دخل الربيع إلى
سرير المنصور ثم أجهش بالبكاء ، فسمعه القوم ، وأيقنوا أن المنصور قد
مات ، فبكى الحاضرون ، ثم حفرت له مائة حفرة دفن في غيرها لثلاث
يعرف قبره (١) .

مات المنصور ، وطويت صفحة من عصر بني العباس كلها حوادث
وعبر ، وآل الأمر لولى عهده المهدي ، كما آلت الوزارة لسكراته ورائده
أبو عبيد الله معاوية ، وزال ما كان للربيع بن يونس من منصب ونفوذ
واسع في الدولة . وعاد الربيع من الحجاز بعد وفاة المنصور : فبدأ بزيارة
أبي عبيد الله معاوية ، فقال له ابنه الفضل :

— يا أباي ، تترك باب أمير المؤمنين المهدي ، وتأتى باب وزيره
معاوية . . . !

(١) لا يعرف قبر المنصور كما لا تعرف قبور أكثر خلفاء بني العباس ، وكانوا
يفعلون ذلك حتى لا ينبش أعداؤهم قبورهم ، ويمثلون بجثثهم انتقاماً .

فقال الربيع :

— يا بنيّ هو صاحب الرجل ، فليس ينبغي أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، ولا أن نحاسبه بما كان منا في أمره من المعاونة والنصرة .
ووصل الربيع والفضل إلى باب معاوية فخرج لهما حاجبه . فقال الربيع :
— استأذن لنا على صاحبك .

فذهب الحاجب وعاد ، فقال له :

— إنما أذن لك وحدك يا أبا الفضل .

قال الربيع :

— سبحان الله . . ارجع إليه ، فأعلمه إن « الفضل » معي . . !
فدخل الحاجب ثم عاد وقد أذن لهما معاً ، فلما دخلا على معاوية وجداه جالسا في صدر مجلسه وقد اتكأ على وسادة ، فلم يقم لهما ، ولا استوى جالسا ، ولا ألقى إليهما شيئا يجلسان عليه ، بل تركهما على البساط ، ثم جعل يسأل الربيع عن سفره ومسيره من الحجاز ، والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه في أمر المهدي ، وكيف حفظ البيعة له ولم يتركها تضيع من يده ليتلقفها منافسوه من العباسيين والعباسيين . وضاق الربيع بمقامه في حضرة معاوية ، فأراد أن ينصرف ، فناداه :

— لا أرى الدروب يا أبا الفضل إلا وقد أغلقت ، فلو أقمت . . !

قال الربيع :

— لا أرى الدروب تغلق دوني .

فقال معاوية :

— بلى قد أغلقت . . . !

فظن الربيع أنه يريد أن يستريح عنده من تعب سفره ، ثم يسأله فيما بعد عما قام به ، وبذله فيبيعة المهدي ، فقال :

— فأقيم إذن . . .

قال معاوية :

— يا غلام . . هيء لأبي الفضل موضعاً في منزل محمد (يعني ابنه)

فلما رأى الربيع أنه يريد الخروج من داره نهض ، وقال :

— كلا ، فليس يعلق دوني درب .

وخرج منصرفاً ، هائماً على وجهه مفكراً .

فقال له ابنه الفضل :

— قلت لك يا أبي لماذا تترك باب أمير المؤمنين ، وتأتي باب وزيره

وكان ينبغي ألا تجيء . . فلما جئت وحجبتك . . كان ينبغي ألا تقيم

منتظراً . . ثم دخلت عليه فلم يقم إليك ، ولا استوى جالساً . . وقد

كان ينبغي أن ترجع ولا تكلمه أبداً . . . !

قال الربيع :

— يا بني أنت أحق . . !

فقال الفضل :

— وما حمقى ؟ !

قال الربيع :

— إن الصواب كل الصواب لم يكن إلا ما فعلته ، فقد خبرت
الرجل . ولكن والله الذى لا اله الا هو ، لأخلعن جاهى ، ولأنفقن مالى
حتى أبلغ معاوية أشد ما يكره . . . !

وذهب الربيع يضرب شمالاً ويميناً ، ويفكر فيما يكرهه لأبى عبيد
الله معاوية وزير المهدي ، لينقض بنيانه ، ويقوض أركانه ، وإنه لكذلك
إذ التقى يعقوب بن داود^(١) ، فسأله هل عنده فى أمره حيلة !

فقال يعقوب : « إني فكرت فى ذلك فوجدت معاوية ليس بجاهل فى
صناعته ، بل إنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعف
الناس حتى لو كان بنات المهدي فى حجره ، وليس بمتهم بالانحراف عن
هذه الدولة ، فليس يؤتى من ذلك ، ولا هو بمتهم فى دينه لأن عقده وثيق .

ولكن ما تريده كله يجتمع فى ابنه عبد الله ، فهو جاحد زنديق »
فقام الربيع ، وصاح « قد أتيت بها » ، وقبّل الرجل بين عينيه ،
وقال « أرشدت والله وأذكرتنى ما نسيت » .

(١) كان يعقوب بن داود كاتب ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، وكان
المنصور حبسه فى المطبق مع آل الحسن ثم أطلقه الخليفة المهدي ، وقربه وكان
يساعد الربيع فى الدس على أبى عبيد الله معاوية

ثم أخذ الربيع يدس للمهدى من يخبره عن إلحاد عبد الله وزندقته ،
وكان المهدى قد غضب على الزنادقة ، وأخذ في البحث عنهم ومعاقبتهم ،
فلما بلغه أمر عبد الله ابن وزيره معاوية أمر بالقبض عليه ، وجرى به إليه
في حضرة أبيه وحاشيته ورجال دولته .

فقال له المهدى :

— أزدىق أنت ؟

قال :

— نعم

فقال اقرأ :

— وتباركت وعالموك بعظم الخلق . . !

فقرأها ، فقال له أبوه معاوية :

— ما بهذا أدبتك يا بني . ولقد علمتك كتاب الله عز وجل :

فأمر المهدى بضرب عنقه . وكان الربيع حاضراً ، فأشار أن يضربه
أبوه بسيفه فأمر المهدى معاوية أن يقوم ، فيضرب رأس عبد الله ، فحمل
السيف ، وتنحى كأنه يريد أن يفعل ما أمره أمير المؤمنين ، ولكنه
ارتعد ، ولم تطاوعه قواه فسقط من يده ، فقال أحد الحاضرين :

— يا أمير المؤمنين شيخ كبير . وله حرمة ، وليس في طاقته أن يقتل
ولده ، ويكفيك غيره ما أردته منه .

فأمر المهدي أحد رجاله ليتولى ذلك ، فصاح عبد الله :

— التوبة يا أمير المؤمنين . . . التوبة . . . !

فتغافل المهدي عنه ، فقال عافية بن يزيد القاضي :

— إنه يعرض التوبة يا أمير المؤمنين.

قال المهدي :

— والله ما الله أراد بذلك .. اقتلوه . . .

فقتل ، ودفن ولم يستقبل به القبلة

نجح الربيع في مكيدته لمعاوية ، وقد أصابه في أعز شئ لديه ، وأكرمه عليه ، ولكن هل بلغ منه ما يريد . لقد أقسم أن يبلغ به أشد ما يكره وقد بلغ به أشد ما يكره الوالد لنفسه ولولده ، ولكنه لم يبلغ به أشد ما يكره الوزير لجأه ونفوذه ، فإزال معاوية كاتباً للمهدي ووزيراً له ، فماذا يفعل ليكيد له في ذلك ، ويحرمه من هذا الجاه وذاك النفوذ ؟ . . .

أتى يوماً إلي أحد خدم المهدي وجواسيسه ، وقال له :

— لك ثلاثة آلاف دينار إن فعلت شيئاً لم يضرّك .

قال الخادم :

— وما هو ؟

قال :

— إذا دخل أبو عبيد الله معاوية على المهدي ، فصار بحضرته ،
قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه . فإذا أنكر المهدي ذلك قلت له :
— يا أمير المؤمنين . قتل ابنه بالامس ، فكيف آمنه عليك أن
يخلو بك ، ومعه سيفه اليوم .

ف فعل الخادم ذلك . . فكان أكبر ما أوحش المهدي من وزيره
معاوية ، وأخذت مكانته تنقص في نظره ومكانة يعقوب بن داود ،
والربيع بن يونس تزيد .

ودخل معاوية على المهدي ، فعرض عليه شأنًا من شؤون دولته ،
فجعل يصيح فيه ، ويشتمه ، ثم أمر به ، فجرّ من رجله حتى خرج ، ثم
حبس . . . وكان في المجلس الشاعر أبو العتاهية ، فأنشد المهدي :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كثرت لديه
تصيب المكرمين لها بهون وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسّم المهدي . وقال أحسنت ، فقام أبو العتاهية ، وقال :

« والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحداً أشد اكراماً للدنيا ، وأصون
لها ، وأشجع عليها من هذا الذي جرّ برجله الساعة . ولقد دخلت إلى أمير
المؤمنين ، ودخل وهو أعز الناس فما برحت حتى رأيت أذل الناس ، ولو
رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت » . . .

وقد عزل المهدي معاوية من الوزارة سنة ١٦٣ هـ وولاهها يعقوب بن داود ، ثم عزله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس ، فعاد اليه جاهه ونفوذه بعد ما بذل من دس ومكر وأشبع نفسه من كيد وانتقام . . . !



مصرع بشار

هذه قصة بشار ومأساته الأليمة تصبور حياته
الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وما وقع
بينه وبين الخليفة المهدي ووزيره مما أدى إلى
مصرعه . . . !

واستأذن علي « المهدي ^(١) » وزيره يعقوب بن داود وهو في قصر ^(٢)
الرصافة ببغداد فأذن له ، فلما دخل رآه متجهماً كثيباً على غير عادته ،
فأشار إليه بالجلوس وهو ينظر إليه في عجب ودهشة ، فجلس الوزير بين
يدي الخليفة صامتاً مفكراً ، فقال المهدي :

— ما وراءك يا يعقوب ؟

قال يعقوب :

— لا شيء ، يا أمير المؤمنين . . لا شيء . . !

(١) هو محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ثالث خلفاء بني العباس . تولى الخلافة سنة
١٥٨ هـ ، وتوفي سنة ١٦٩ هـ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة

(٢) لما بنى أبو جعفر المنصور بغداد سنة ١٤٥ هـ أمر ابنه المهدي أن يسكن في الجانب
الشرقي منها . وسمى هذا الجانب (الرصافة) بضم الراء . وقد بنى بها قصراً سمي (قصر
الرصافة) . وأقام المهدي فيها جامعاً سمي (جامع الرصافة) وفرغ المهدي من بنائها
سنة ١٥٩ هـ

فقال المهدي :

— وكيف ذلك وأنت تأتيننا على هذه الحال ؟ !

قال يعقوب :

— إلى متى يعيث هذا الأعمى المكتنى بأبي معاذ^(١) وينتهك الحرمات

ويقترب الكبراء . ولقد أتى اليوم أكبر الكبراء ، فهجا أمير المؤمنين بما لا ينطق به لساني ، ولا يتوهمه فكرى . . . !

فقال المهدي :

— بحياتي إلا أنشدتني ما هجاني به . . .

قال يعقوب :

— والله يا أمير المؤمنين لو خيرتني بين ضرب عنقي ، وإنشادي إياه ،

ما أنشدته ولا خرت إلا أن تضرب عنقي . !

فقال المهدي :

— لا بد من أن تنشدني ما قاله هذا الأعمى . وقد حلفت عليك أن

تفعل .

قال :

— يا أمير المؤمنين . أمّا لفظاً ، فلا ، ولكني أكتب ذلك .

ثم تناول ورقة وكتب فيها ما قاله بشار في هجاء المهدي وهو :

خليفةٌ يزني بعماته يلعب بالدبوق^(٢) والصولجان

(١) أبو معاذ لقب بشار بن برد . وقد ولد سنة ١٠٤ هـ وقتل سنة ١٦٧ هـ

(٢) الدبوق لعبة كان يلعب بها الصبيان في ذلك العصر

أبدلنا الله به غـيـره ودس موسى في حر الخيزران (١)

فقرأ المهدي هذين البيتين فكاد ينشق غيظاً ، وقال ليعقوب :

— ثم ماذا قال !

فقال :

— كفى يا أمير المؤمنين . وأعفى . . .

قال المهدي :

— لقد علمت أنه قال شيئاً في حلقة يونس النحوى ولم يخش بأساً .

فقال يعقوب :

— نعم يا مولاي . وقد قال ما حرض به على الفتنة ، واستنفر به

الأمويين من أجدادهم

قال المهدي :

— وكيف ذلك ؟ ؟

فتناول يعقوب ورقة أخرى وكتب فيها بيتين لبشار في هجاء المهدي وهما :

بنى أمية هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين النابى والعود

فقال المهدي :

— أو قال ذلك أيضاً . . . والله لأحصدن جسده حصداً . . . !

قال يعقوب :

(١) الخيزران زوجة المهدي وأم موسى الهادي وهرون الرشيد

— ان هذا المرعث^(١) الزنديق . هو أعدى أعداء أمير المؤمنين ،
وأعدى أعداء أبيه . أولم تعلم يا مولاي ما قاله في أبي جعفر المنصور وتحريضه
لابراهيم بن عبدالله العلوي على الخروج عليه وخلعه ومبايعته لنفسه بعد أن
قتل أبوك عدو الله أبا مسلم الخراساني ، فبعث إليه بقصيدته التي مطلعها :
أبا جعفر ما طيب عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
ولم يخش في ذلك بأس المنصور ، ولكنه تشيع منه للعلويين ، وكراهية
لبني العباس ، ثم علم يا أمير المؤمنين إن الله أظفر المنصور بعدوه ابراهيم
وقتلوه وبدد شمل أنصاره فخاف أن يظهر أمره ، فغير وبدل في القصيدة وقال فيها :
« أبا مسلم » ما طيب عيش بدائم ولا سالم عما قليل . بسالم
فقال (أبا مسلم) بدل (أبا جعفر) . ثم قال .

على الملك الجبار يقتحم الردى	ويصرعه في المأزق المتلاطم
كأنك لم تسمع بقتل متوَّج	عظيم ، ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسّم كسرى رهطه بسيوفهم	وأمسى أبو العباس أحلام نائم
وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة	عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مقيماً على اللذات حتى بدت له	وجوه المنايا حاسرات العائم

حتى قال :

(١) المرعث كان لقباً لبشار بن برد لأنه كان يلبس قيصاً جيوبه مسترسلة . والمرعث
الاسترسال . أو لأنه كان يسترسل في قوله ويتساقط في هجائه . وقد كان لبشار ضعفاً
طويلاً عظيم الوجه مجدوراً جاحظ العينين قد تغشاهما لحم أحمر . وكان خطيباً شاعراً
صاحب منظوم ومشهور

محا الله قوماً رأ سوك عليهمو وما زلت مرءوساً خبيث المطاعم
أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم
فحذف هذا البيت يا أمير المؤمنين ، وقال بعده :

سراج يعين المستضى وتارة يكون ظلاماً للعدو المزام
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
ومع أن المنصور عرف نفاقه ، وكشف أمره ، فانه تغاضى عنه ، بل قابل
الإساءة بالغفران ، والخطيئة بالإحسان ، فوصله وأعطاه ، وقربه وأكرمه
وحمله معه في الحج ، وخلع عليه جبة هاشمية من خير ملابسه فما
كان من هذا الزنديق المستهتر إلا أن فضل عليها بعض دنائير قباعها في
سوق الكوفة .

فقد سافر أبو جعفر للحج ، وصحب بشاراً معه فيمن صحب من الشعراء
وبينما كان الزكب سائراً في وقت الهاجرة جعلت الشمس تضحك بين عينيه
فقال أبو جعفر إني قائل بيتاً ، فمن أجازته وهبت له جبتى هذه ، فقال
الشعراء يقول أمير المؤمنين ، فقال :

وهاجرة نصبت لها جينى يقطع ظهرها ظهر العظاية (١)
فانبرى بشار ، وقال :

(١) العظاية دويبة ملساء تعدو وتترد في عدوها وهي تشبه سام أبرص

وقفت بها القلوص^(١) ففاض دمعى على خدّى وأقصرَ واعظايه
فنزح المنصور الجبة وهو راكب ودفعها إليه ، فهاذا فعل يا أمير المؤمنين
بهذه المنحة الشريفة ؟ ؟

إنه باعها فى السوق باربعمائة دينار استخفافاً منه بشأنها ، وشأن
المنصور . .

وكان أبو دلالة الشاعر حاضراً ، فنظر إليه المهدى ، وقال له :

— وماذا تقول أبا دلالة ؟

فقال أبو دلالة :

— إن هذا الأعمى قد نال بلسانه كل شريف ، وما رعى لك يا أمير
المؤمنين عهداً ولا خاف لك بأساً . ولقد كنت نهيتك عن النساء ، ولكنه
ما انتهى ، بل أكثر وأقذع ، وقال على الرغم من أمير المؤمنين :
يا بن موسى ماذا يقول الإمام فى فتاة بالقلب منها أوام
بت من حبها أوقر بالكأس ويهفو على فؤادى الهيام
ثم إنه قدم عليك وأنشدك قصيدته التى مدح فيها أمير المؤمنين وبدأها
بالغزل ، وهو يعلم أنك قد نهيتك عنه . فلما صادف منك إعراضاً خرج من
عند أمير المؤمنين وهو يقول :

— والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يخش صرفه على أحد
ولكنه كذب أملى ، لأنى كذبت فى قولى .

(١) القلوص الشابة من الإبل الطويلة القوائم

فلما سمع المهدي ذلك اهتمج واشتدت نغمته على بشار
ثم التفت إلى يعقوب بن داود ، وقال :
— هيء الرحيل إلى البصرة للنظر في أمرها
وما كان قصده من هذا الرحيل إلا بشار بن برد والانتقام منه
حيث يقيم !.

كان بشار بن برد من مخضرمي شعراء الدولتين الأموية والعباسية وقد
اشتهر فيهما ومدح وهجا ونال أسنى الجوائز. ولد بالبصرة مكفوفاً وأقام بها.
وكان أبوه مولى لبني عقيل فأعتقوه ، ولكن بشاراً كان كثير التلون في
نسبه ودينه وسياسته

دخل على المهدي ، فسأله فيمن تعتد يا بشار ، فقال :
« أما اللسان والزي فعرييان . وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في
شعري :

ونبتتُ قوماً بهم جنّة يقولون من ذا وكنتُ العلمُ
ألا أيها السائلُ جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرمِ
نمت في الكرام بنو عامر فروعي وأصلي قریش العجمِ
وكان أبو دلامة حاضراً ، فقال : « كلا لوجهك أقبح من ذلك ،
ووجهي مع وجهك »

فأجابه بشار يصف نفسه :

« كلا والله ما رأيت رجلاً أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك . والله إنى لطويل القامة ، عظيم الهامة ، تام الألواح ، أسجح^(١) الخدين ، فهل أنت مثلى^(٢) يا مرضعان ؟ »

فقال المهدي :

— ومن أى العجم أصلك ؟

قال بشار :

— من أكثرها فى الفرسان ، وأشدّها على الأقران من أهل طخارستان

قال المهدي ولكنك انتسبت للعرب فقلت :

إننى من بنى عقيل بن كعب موضع السيف من طلى الأعناق . وكان بشار متحيراً فى الدين كتحيره فى السياسة فكان يدين بالرجعة ويكفر سائر الأمة . ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، فيقول :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منه كانت النار

(١) أسجح أى سهل

(٢) المرضعان اللثيم

(٣) مقاطعة فى إيران . وكان أبو بشار من سبي المهلب بن أبي صفرة من هذه المقاطعة

ويفضل إبليس على آدم فيقول :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتدبروا يا فتية الأشرار
النار معدنه وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وكان أحد ستة من رجال الجدل والكلام ، وهم عمرو بن عبيدة ،
وواصل بن عطاء . و بشار بن برد . وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم
ابن أبي العوجاء ، وجريير بن حازم الأزدي . فأما عمرو ، وواصل ، فقد
صارا من المعتزلة . وأما صالح وعبد الكريم ، فقد صححا التوبة ، وأما
جريير بن حازم ، فصار إلى قول الدهريين ، وأما بشار فبقى متحيراً

وكان بشار متشيعاً للفاطميين ضد العباسيين مناصرة لا إبراهيم بن
عبد الله بن الحسن فلما ظفر به أبو جعفر المنصور لحق به ، وبقي بيباه حتى
مات ، فأقام بيباب خليفته محمد المهدي إلى أن اصطفى يعقوب بن داود
وزيراً فوقع بينهما ما أقصاه عنه ، وازال الألفة بينهما .

فقد وفد بشار بن برد على يعقوب بعد وزارته ، وكان يعرفه مذ كان
كاتباً لإبراهيم بن عبد الله ، فمدحه بقصيدة ، فلم يحفل يعقوب به
فصاح بشار به :

« طال الثواء على رسوم المنزل »

فرد يعقوب :

« فإذا تشاء أبا معاذ فارحل »

فغضب بشار وقال يهجوهُ :

يعقوب قد ورد العفاة عشية متعرضين لسبيك المغتاب

فسقيتهم وحسبتي كموثة نبتت لزارعها بغير شراب

مهلاً لديك فإني ربحانة فاشم بأنفك واسقها بذناب

ثم هجاه مرة أخرى ، وهجا الخليفة

فبلغ ذلك يعقوب فدرس له عند المهدي . فلما أعطى الشعراء العطايا ولم

يعطه ، قال يهجوهُ :

« خليفة يزني بعماته . . . » . . .

فغضب المهدي ، وقال ليعقوب : « هيء لنا الرحيل إلى البصرة للنظر

في أمرها » .

وصل المهدي وحاشيته وفيهم يعقوب بن داود إلى البصرة على ظهر

سفينة شقت نهر دجلة . فلما رست على البطيحة بالقرب من البصرة سمع

المهدي أذاناً في وقت الضحى ، فقال :

— انظروا ما هذا الأذان ومن هو المؤذن ؟ !

فذهبوا فإذا بشار بن برد سكران ، وقد جعل يؤذن للصلاة . فقال المهدي

احضروه . فأحضروه إليه بالسفينة ، فقال له :

— يا زنديق أتلهو بالأذان في غير وقت الصلاة وأنت سكران ؟

ثم أمر بضربه بالسياط ، فكان كلما أوجعه الضرب يقول :

— حس (١) . . . !

فقال يعقوب :

— انظريا أمير المؤمنين يقول حس ، ولا يقول بسم الله . .

فقال بشار :

— ويلك . أطعام هو ، فأسمى الله عليه . . !

قال يعقوب في تهكم :

— أفلا تقول الحمد لله . . !

فقال بشار :

— ويلك أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها . . !

ثم جعل الجلال يضربه ضرباً مميتاً حتى بان عليه الموت ، فألقى في جانب من السفينة فقال وهو يعاني السكرات : ليت عين أبي الشمقم رأتنى حين قال :

إن بشار بن برد تيس اعمى في سفينه
ثم لفظ نفسه الأخير ، وطرح في البطيحة ، فجاء أهله فكفنوه ودفنوه .
وبعث المهدي بعد موته إلى منزله من يفتشه فعثر بصحيفة مكتوب
فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . إني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبعثهم
فتذكرت قرابتهم من رسول الله (ص) فأمسكت عنهم إجلالاً له صلى
الله عليه وسلم ، على أنى قلت فيهم :

(١) كله يقال للمنىء إذا أوجع الجسد

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبا بليين حُفًا بالعاريتِ
لا يُبصران ولا يُرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروتِ
وإني أستغفر الله !..

شاء الله أن ينتقم لبشار من يعقوب بعد موته ، فقد كان يعقوب على الرغم من خدمته للمهدى ، ومشايعته له يخفى تشيعاً للعلويين ، فنُسى به إلى المهدى ، فشك فيه ، وأخذ الشك يزداد عنده ، فأراد أن يمتحن ميله إليهم ، فدعاه ذات يوم فدخل يعقوب على المهدى وهو في مجلس مفروش بفرش مورّد متناه في الحسن وجمال المنظر ، وعليه ثياب مورّدة وعلى رأسه جارية ليس أحسن منها ، وهو بجانب بستان فيه شجر قد أزهَرَ فقال المهدى :

— يا يعقوب كيف ترى مجلسنا هذا ؟

قال :

— على غاية الحسن ، فمتع الله أمير المؤمنين به ، وهناه .

فقال المهدى :

— جميع ما فيه لك يا يعقوب . وهذه الجارية لك لیتم سرورك . وقد

أمرت لك بمائة ألف درهم تفرقها في بعض شأنك .

فدعا يعقوب الله أن يبقى أمير المؤمنين ، فقال المهدى :

— ولكن لى إليك حاجة ...

فتوجس يعقوب ، وقال :

— يا أمير المؤمنين . إني أستعيز بالله من سخطك .

فقال المهدي :

— لا . ولكني أحب أن تضمن لي قضاء حاجة .

قال :

— السمع والطاعة . . .

فقال المهدي :

— والله ثلاثاً . . .

قال يعقوب :

— والله ثلاثاً . . .

فقال المهدي :

— ضع يدك على رأسي واحلف به .

ففعل ذلك ، فلما استوثق منه قال له :

— هذا فلان بن فلان رجل من العلويين أحب أن تكفيني مؤنته ،

وتريحني بقتله ، فخذة إليك ، وافعل ما أمرتك .

اقتاد يعقوب الرجل العلوي ، وحمل المال والمتاع ، وبعث إليه المهدي

بالجارية فاصطفها لنفسه .

ولما وصل إلى المنزل دعا العلوي ، لينفذ فيه أمر أمير المؤمنين فقال

له الرجل :

— ويحك يا يعقوب تلقى الله بدمى ، وأنا رجل من ولد فاطمة رضى
الله عنها بنت محمد (ص) . .

فقال له :

— يا هذا . فيك خير ؟

قال الرجل :

— ان فعلت لى خيراً شكرتك ، ودعوت لك .

فقال يعقوب :

— خذ هذا المال ، وخذ أى طريق شئت .

وكانت الجارية التى أهداها المهدي واقفة بحيث لا يريانها ، فسمعت
الكلام كله فوجهت به إلى المهدي مع بعض خدمه ، فأرسل من ظفر
بالعلوى وبالمال فى الطريق . ثم دعا يعقوب ، فحضر ، فقال له :

— ما حال صاحبك العلوى ؟

فأجاب يعقوب :

— قد أراح الله أمير المؤمنين منه . . . !

قال المهدي :

— مات ؟ ؟

قال يعقوب :

— نعم يا أمير المؤمنين ؟

فقال المهدي :

— والله ثلاثاً . . .

قال يعقوب :

— والله ثلاثاً . . .

فقال المهدي :

— ضع يدك على رأسي واحلف .

فوضع يعقوب يده على رأسه ، وحلف به . فالتفت المهدي وصاح :

— يا غلام اخرج إلينا مَنْ في هذه الغرفة ؟

فأخرج العلويّ والمال . فأسقط في يد يعقوب ، فقال له المهدي :

— لقد حل لي والله دمك . ولو أردت إراقته لأرقته . . يا منافق .

ألم أرفع من ذكرك وأنت خامل ، وأعلى من قدرك وأنت غافل ، وألبسك من نعم الله ما لم أجد لك بحمله يدين من الشكر . والله لألبسك من الموت قميصاً لا يخلق الدهر جديده . . يا غلام إلى سجن المطبق^(١) !

فأخذوا يعقوب إلى هذا السجن المشهور فأدلوه في بئر عميق لا يرى فيها نوراً فبقي فيها مدة طويلة حتى مضى من عهد الرشيد خمس سنين وشهرين . وذات يوم دعا به الرشيد ، فذهب إلى حيث لا يعلم وقد كف بصره ثم قيل له : « سلم على أمير المؤمنين » فسلم ، فقال له الرشيد :

— أي أمير المؤمنين أنا ؟

فقال يعقوب : — المهدي . .

قال الرشيد :

(١) المطبق بضم الميم وسكون الظاء وكسر الباء السجن تحت الأرض

— رحم الله المهدي .

فقال يعقوب : — فلهادي .

قال : — رحم الله الهادي :

فقال يعقوب : — فالرشيد . . .

قال الرشيد : — نعم .

فقال يعقوب : « ما أشك في وقوف أمير المؤمنين على خبري وعلتي

وما تناهت إليه حالي » . قال الرشيد : « نعم ، كل ذلك عندي ، فسل

حاجتك » فقال : « المقام بمكة » . قال : « نفعل ذلك ، فهل غير هذا ؟ »

فقال : « ما بقي في مستمتع لشيء » . قال الرشيد : « فاذهب إلى حيث

تريد » . فذهب إلى مكة وأقام بها إلى أن مات . . !



الخيزران

السياسة تفسد الأخلاق حتى أخلاق الأبناء
والأمهات . فهذه الخيزران أم الخليفة موسى
الهادي كانت ولوعة بالسياسة وحب السيطرة
والنفوذ ، فلما وقف ابنها الهادي في سبيلها لم
تتردد في التضحية به ، ودبرت مؤامرة قتله ،
وهي قصة جديدة بأن تسمى « غدر أم » ١

وأرق الخليفة موسى الهادي ذات ليلة ، واشتد به الأرق ، وتقاسمته
الهموم . وهاج له في ظلام الليل ما يجري حوله من تسلط والدته
« الخيزران »^(١) على شؤونه ، وتدخلها في أمور دولته ، وسعيها في تقوية
نفوذ قومها الفُرس ومعارضتها له في خلع أخيه هرون الرشيد من ولاية
عهده . فدعا بجاريته « أمة العزيز » وأمرها أن ترسل في طلب جليسه
وأنيسه « عيسى بن دأب » . وكان غريباً صميماً من أهل الحجاز ، ومن
أكثر رجال عصره علماً وأدباً ورواية ، فدخل عليه عيسى وهو في بيت

(١) بويح للخليفة موسى الهادي سنة ١٦٩ هـ وقتل سنة ١٧٠ هـ . وكانت
والدته الخيزران من جوارى المهدي . فتزوجها وماتت سنة ١٧٣ . وكانت تكره
الوزير العربي « الربيع بن يواس » ، وقد أبت على هرون الرشيد تعيين ابنه
الفضل بن الربيع خلفاً له . وقد استعان بها البرامكة في أوائل عهد الرشيد .

شتوى صغير ، وأمامه كتاب يقرؤه ، فرفع رأسه إليه ، ثم قال :

— يا عيسى . .

— لبيك يا أمير المؤمنين .

قال الهادى :

— أرقّت الليلة ، واشتملت على الخواطر ، فحدثني من أخبار الناس

عساك تدفع عن نفسى بعض ما تجد .

فأخذ عيسى بن دأب يحدث الخليفة ، ويروى له بعض السير والأخبار

ثم اجتاز بهما الحديث إلى أخبار مصر وفضائلها ومساوئها ، فقال الهادى :

— إن فضائل مصر يا بن دأب أكثر من مساوئها . . . ؟

فقال ابن دأب :

— هذه يا أمير المؤمنين دعوى المصريين بغير برهان . وأهل العراق

يأبون هذه الدعوى ويذكرون أن عيوبها أكثر من محاسنها . ؟

— مثل ماذا ؟ . .

— إن من عيوب مصر أنها لا تمطر كثيراً . وإذا أمطرت كره

المصريون مطرها . وابتهلوا إلى الله بالدعاء أن يرفعه عنهم . وقد قال الله

تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته » فهذه رحمة

مجللة لهؤلاء القوم ، وهم لها كارهون ، وهى ضارة لهم غير موافقة ، لا يزكو

بها زرعهم . ولا تخصب بها أرضهم .

— ثم ماذا ؟

— ثم من عيوبها الريح المريسية ، وهى الجنوبية ، وذلك أن أهل مصر يسمون أعلى الصعيد إلى بلاد النوبة « مريس » فإذا هبت الريح المريسية ثلاثة عشر يوماً اشتروا الأكفان والحنوط ، وأيقنوا بالوباء القابل والبلاء الشامل :

— ثم ماذا يا بن دأب ؟

— ثم من عيوبها اختلاف جوها ، فالمصريون يغيرون ملابسهم فى اليوم الواحد مراراً فيلبسون القميص مرة ، والمبطنات مرة . والحشو مرة أخرى . ذلك لتباين مهاب الرياح فيها ليلاً ونهاراً فى سائر الفصول . أما نيلها ، فكفى ما عليه من الخلاف لجميع الأنهار ، وليس بالفرات ولا الدجلة ولا بأنهار بلخ وسميحان وجيحان شئ من التماسيح . وهى فى النيل ضارة بلا منفعة ، ومفسدة غير مصلحة .

قال الهادى :

— ويحك يا بن دأب .. كنت مشغولاً بزيارة مصر لأروح فيها نفسى ، وأخفف عنها بعض ما تجد من غم واكتئاب فزهدتنى بوصفك لها ، فدع عنك ذكرها ، وأخبرنى ما ترى فى أمر هؤلاء القواد الذين يترددون على أمى ، يؤملون بكلامها عندى قضاء حاجاتهم ، وإجابة أطعاهم .

— لقد مددت يا أمير المؤمنين فى برِّك بأملك ، وطاعتك لها وسماعتك لقولها حتى صار لها عندك ما كان لها عند أبيك المهدي ، من الاستبداد به والسيطرة عليه ، والتدخل فى شؤون ملكه ، فالرأى أن

تجمع هؤلاء القواد الذين يقصدونها فيما يريدون ، وتأمروهم ألا يقر بوا بابها .
— أصبت ، وسأمرها كذلك ألا تستقبل أحداً منهم . فما للنساء
والكلام في أمور الرجال .. !!

انصرف ابن دأب إلى داره ، وانصرم الليل في بطاء عن الهادى ،
وأقبل الصباح واستوى الخليفة على سرير الخلافة وإلى جانبه وزيره
الربيع بن يونس ، وكاتبه عبيد بن زياد ، فدعا بالقواد الذين يترددون
على باب الخيزران ، فلما وقفوا بين يديه ، قال لهم :

— أيما خير : أنا ، أم أتم ؟

— فقالوا :

— بل أنت يا أمير المؤمنين .

— فأيما خير : أمى ، أم أمهاتكم ؟

— بل أملك يا أمير المؤمنين .

— فأياكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولون ، فعلت أم

فلان ، وصنعت أم فلان ، وقالت أم فلان .

— ما أحد منا يحب ذلك يا أمير المؤمنين .

— إذن ، فما بالكم تقصدون أمى ، فتتحدثون معها ، وتتوسلون بها ،

وتسعون إليها لقضاء حاجاتكم عندى .

فسكت القواد ، وأسقط في أيديهم ، وانقطعوا عن باب الخيزران .

علمت الخيزران بما حدث ، فشقَّ عليها ذلك ، وكانت قد وعدت أحدهم بقضاء حاجة له عند الهادي ، فذهبت إليه ذات يوم ، وسألته قضاءها ، فاعتلَّ عليها بعله فقالت له :

— لا بد من إجابتي . !

— لا أفعل . . !

— إني ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك أحد قوادك .

— ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها . والله لأقضيها له . .

— إذن والله لا أسألك حاجة أبداً .

— إذن والله لا أبالي . . !

فقامت مغضبة ، فعاجلها الهادي بقوله :

— مكانك ، فاستوعبي كلامي ، والله ، وإلا نُقيت من قرابتي من

رسول الله (ص) لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو من

خاصتي ، أو من خدمي ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء ، فليلزم

ذلك . ما هذه المواقب التي تغدو كل يوم إلى بابك . أما لك منزل

يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، إياك إياك أن تفتحى فاك في حاجة لمسلم

أو ذمي . . !

سمعت الخيزران ذلك من ولدها الهادي ، فاكتأبت وقامت منصرفة

لا تعقل ما تطأ ودخلت قصرها في وجوم ، وآوت إلى غرفتها وانطرحت

على سريرها ثم أجهشت بالبكاء ، فأسرعت إليها جاريتها « عتبة » وسألتها

عما بها ، فأفضت إليها بما حدث ، ثم قالت لها : « ادع لي خالصة » وكانت خالصة من أدنى جواربها وأشدهن حباً لها ، فأسرّت إليهما بكلام خطير . . . !

وإنهن لكذلك وإذا بالهادى يدخل على أمه ملاطفاً لها ، مسترضياً نفسها ، معتذراً إليها عما حدث ، وهو يقول :

— إني أريد لك يا أمى ألا تخرجنى من خفر الكفاية إلى بذادة التبذل ، فليس من قدرك أن تنزلى لقضاء حاجات الرجال . .
فأعرضت عنه ومكثت ساعة شعر فيها الهادى بما تضرره له والدته من حقد ونقمة وغدر ، ثم قالت له :

— لقد أمرت ألا أتحدث إليك فى شؤون الرجال ، وألا أتدخل فى أمور دولتك ، فهلاً تريد أن أتحدث معك أيضاً فى شأن أخيك هرون ، لأردك عن غيك ، وأنبهك إلى سوء ما تفعل إن خلعتك من ولاية العهد ؟!
فنهض الهادى مغضباً ، وقال بصوت مرتفع :

— ما للنساء والاعتراض فى أمر الملك ، عليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك يا أماه ، ولك بعد ذلك طاعة فيما يجب لك .

وانصرف غير مبال بها ، ولا سامع لقولها . وبعد أيام جاء إلى الخيزران رسول من الهادى يحمل « أرزة » وهو يقول :

— يقول أمير المؤمنين استطبت هذه الأرزة ، فأكلت منها ! فكلى منها فأخذتها « خالصة » منه ودخلت على مولاتها ، فقالت لها :

— هذه أرزة بعث بها أمير المؤمنين ، وإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه . والرأى أن نأتي بكلب يأكل منها أولاً .

وأحضرت خالصة كلباً ، وأطعمته منها ، فما مضت برهة طويلة حتى سقط جثة هامدة ، فقالت الخيزران في غيظ وحقد :

— ويله أراد أن يقتلني .. متى أستريح من هذا القاسى القلب ، الشرس الأخلاق ، إني لأرجو أن يأتي يومه ، وأرى أخاه الرشيد يملأ الدنيا نوراً وسروراً .

وعاد الرسول ، فأخبر الهادي بما حدث ، فقال الهادي :

— لقد كنت أرجو أن تأكل من تلك الأرزة . ولو أكلت منها لاسترحت .. متى أفلح ملك أمه الخيزران ! ! . . .

كانت الخيزران تتشيع لقومها العرس وكانت تحب ولدها الثانى هرون الرشيد ، وتؤثره على الهادي لكرم نفسه وعظيم طاعته لها ، وأدبه معها وتأديبه الفارسي أيضاً . وكان زوجها المهدي قد أقامه ولياً للعهد بعد أخيه ، وجعل على تربيته يحيى بن خالد البرمكي ، فأراد الهادي بعد وفاة أبيه أن يخلع أخاه ، ويقيم ولده الأكبر جعفرأ ولياً للعهد من بعده ، وتابعه في ذلك القواد العرب ، ودسوا إلى بعض الشيعة ، فتكلموا في أمر الرشيد وتنقصوه في المجالس العامة ، وقالوا لا نرضى به ولياً للعهد ، وأمر الهادي ألا يسار أمامه بحربة كعادة أولياء العهد في الدولة ، فانفض

الناس من حوله ، واجتنبوه ، فلم يكن أحد يجترى أن يسلم عليه أو يقترب منه غير يحيى وأولاده البرامكة .

وغضب الهادى على يحيى ، واتهمه بأنه يفسد أخاه عليه ، ويحرّضه على التثبث بولاية العهد ، فبعث فى طلبه ، فلما حضر إليه ، قال له الهادى :

— يا يحيى . . . مالى ومالك . . .

فأجاب يحيى :

— أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون بين العبد ومولاه إلا طاعته

— فلم تدخل بينى وبين أخى هرون وتفسده على . ١٩

— من أنا يا مولاي حتى أفسد بينك وبين أخيك . إنما أقامنى

المهدى على تربيته وصيّرنى فى خدمته ، فقامت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى أنت بذلك ، فاتهميت إلى أمرك ، وعملت برأيك .

— ولكنى علمت أن أخى هرون يريد التنازل عن ولاية العهد لابنى

وأنت ترده عن ذلك .

— يا أمير المؤمنين ، إنك أن حملت الناس على نكث الإيمان ،

هانت عليهم أيمانهم وأن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته . وأصون للخلافة فى أولادك وأولاد أبيك

— صدقت . . . ونصحت . . . ولى فى ذلك تدبير .

ثم أذن له فى الانصراف ، فانصرف ، لكن وزير الهادى «الربيع بن

يونس» وبعض القواد العرب الذين كانوا يحسدون يحيى ، ويخشون نفوذ الفرس العظيم فى بلاط الخليفة أخذوا يوغرون صدره ، ويردونه عن رأيه الأخير .

وعلم يحيى بما يدبر له وللرشيد ، فنصحه فى الإستئذان للخروج للصيد فيغيب عن بصر الخليفة ، ويدافع بهذه الغيبة الأيام . فأذن له الهادى فى الخروج وتغيب أربعين يوماً ، فأنكر غيبته ، وبعث إليه فى العودة ، فجعل يتعامل ويعتذر ، فغضب الهادى ، وبسط مواليه فى المجالس يشتمون الرشيد ، وخروجه على أمر الخليفة ، وتحريض يحيى أياه على مخالفة أخيه ، وخافت الخيزان على هرون ، فبعثت جاريتها إلى يحيى بن خالد ، تقول :
— الله . الله فى ابنى . لا تقتله ، ودعه يجيب أخاه إلى ما يريد ، فبقاؤه أحب إلى من الدنيا وما فيها

فصاح يحيى فى الجارية :

— ما أنت وهذا . بلغى مولاتك إن يكن الأمر كما تقول ، فإنى وولدى وأهلى سنقتل قبله ، فان اتهمت عليه ، فلست بمتهم على نفسى وعليهم . . . !

فرجعت الجارية وأخبرت مولاتها بما قال يحيى بن خالد ، فتمتت بعبارات غير مفهومة ، ودعت جاريتها « خالصة » وسألها عما فعلت مع « أمة العزيز » جارية الهادى فأنبأتها أنها وافقت على ما تريد ، وقد سررت

سروراً كبيراً بهذا الوعد الجميل الذى وعدته أياها ، وهو زواجها بهرون
الرشيد إذا نجحت المؤامرة .

عاد الرشيد من الصيد ، وكان الهادى قد اعتلت صحته فى ذلك الحين
وانقطع عن الناس ، فلما علم بحضور يحيى أمر بحبسه . حتى يرى فيه رأيه
بعد شفائه ، فأدخل الحبس فى ليلة ظلماء ، وبعث الخيزران فى تلك الليلة
إلى « أمة العزيز » بعض جوارىها وكانت قد دبرت كل شىء فدخلن على
الهادى فى منتصف الليل وهو على سريره مستغرقاً فى نومه ، فوضعن الوسائد
على وجهه حتى قضى مختنقاً ... !

خرج الجوارى فى صمت وسكون ، فلم يشعر بهن أحد ، إذ كانت أمة
العزيز قد أحكت كل شىء واحتاطت لكل شىء ، وبعد ساعة من
خروجهن صاحت « وامولاه . . . واخليفتاه . . » فهرع الناس على صوتها
وهى تصرخ مات الهادى مات أمير المؤمنين . . !

وجاءت « خالصة » إلى الخيزران ، فقالت لها :

— مات ياسيدتى موسى الهادى . . .

فقالت فى جلىء عجب :

— ان كان موسى قد مات ، فقد بقى هرون . . هات لى سويقاً ،

واسقنى ، واسقى الجوارى ، ووزعى الأموال عليهن .

ف فعلت ما أمرت ، ثم بعثت الخيزران إلى يحيى بن خالد فى حبسه تقول :

« يا يحيى أن الرجل قد مات ، ونحن نساء ، فادخل إليه ، وأصلح من أمره » فدخل يحيى على الهادى ، وهو على سرير موته ، فأصلح من أمره ، وانطلق إلى هرون ، فلما وصل إلى قصر الخلد حيث كان يقيم تلقاه خادم ، فأنبأه أن « مراجل » زوجة هرون الفارسية قد ولدت غلاماً ، فأتى الرشيد مسرعاً ، وقال له :

— لتهنك الخلافة ، وليهنك غلام من مراجل . . !

فسرّ الرشيد بهذه البشرى ، وكان هذا الغلام عبد الله المأمون ، وكانت ليلة مات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ، وولد فيها خليفة . . ودعا يحيى بن خالد كاتبه وأمره أن يكتب إلى ولاية الدولة وعماها بخلافة الرشيد . واستتب للرشيد الأمر ، وتزوج أمة العزيز ، فكان له منها ولده « على » ومضى عهد طوته بغدرها جارية ، وظهر عهد أنشأته بيدها جارية ! .



الزاهد

هو أبو العتاهية ، عاش في عهود سبعة
خلفاء . كانت حياته ألواناً من الأمل واليأس
والحب والزهد ، والسياسة والاجتماع . وفي
هذه القصة تصوير له ولعصره في هذه النواحي

وأقبل أبو العتاهية شاعر الرشيد^(١) على مخارق^(٢) المغنى ، وهو
جالس في منزله ببغداد يجرب لحناً جديداً صنعه ليغنيه أمام الخليفة ،
وكان صديقاً حميماً لأبي العتاهية . فقال له :

— قد عزمت على أن اتزود منك يوماً تهبه لى ، فمتى تنشط ؟

قال مخارق :

— متى شئت . . .

فقال أبو العتاهية :

— أخاف أن تقطع بى فلا تحضر . !

(١) أبو العتاهية هو اسماعيل بن القاسم . وكنى بهذه الكنية لطوله أو لتعته بجارية
المهدى . وقد ولد ببلدة عين التمر بالقرب من الكوفة سنة ١٣٠ هـ وتوفى سنة ٢١٣
تقريباً . وأطلقنا عليه لقب شاعر الرشيد . لأنه كان أكثر الشعراء ملازمة له في السفر
والحضر قبل الخلافه وبعدها

(٢) هو أحد كبار المغنين في ذلك العصر ، وكان يدين بالتلمذة لإبراهيم الموصلى
وكنيته (أبو المهنا)

قال مخارق :

— والله لا فعلت أبداً وإن طلبني الخليفة . !

فقال أبو العتاهية :

— يكون ذلك في غد إن شاء الله .

قال مخارق :

— افعل إن شاء الله .

فوعده مخارق ، وكان الغد ، فذهب إلى منزل أبي العتاهية فرآه جالساً في مكان نظيف وعلى فراش جميل . وبين يديه جواريه الحسان ، وعبيده السودان ، وقد دعا بمائدة عليها خبز سميد من الدقيق الأبيض ، وخل وبقل وجدى مشوى . فأكلا منه ما شاءا ، ثم دعا بسمك مشوى ، فأصابا منه جانباً ، ثم دعا بحلواء فتناولوا منها قدراً . وجاءت الجارية بفاكهة وريحان ، وألوان من الأنبذة . فقال أبو العتاهية ^(١) لمخارق :

— اختر لنفسك ما يصلح منها

فاختار مخارق وشرب . ثم صب أبو العتاهية قدحاً ، وقال غني في

قولي :

أحمدُ قال لي ولم يدبر ما بي أنحب الغداة عتبة حقا
فتنفست ثم قلت نعم حباً جرى في العروق عرقاً فعرقا
قد لعمرى مل الطيب ومل الأهل مني مما أقاسى وألقى

(١) كان أبو العتاهية طويلاً أبيض اللون ، حسن الهيئة أسود الشعر ، وله وفرة جمدة وكانت له لباقة وحصافة . وكان يتجر بالجرار هو وأخوه

فغناه مخارق ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحراً بكاء . ثم قال أبو العتاهية
غنى قولى :

ليس لمن ليست له حيلة موجودة خير من الصبر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجرى
من سابق الدهر كبا كبوة لم يستقلها آخر العمر
فغناه وهو يبكي وينشج ، ثم شرب قدحاً آخر ، وقال غنى فديتك فى
قولى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى تكون على الأقدار حتماً من الحتم
يصاب فؤادى حين أرمى ورمى تعود إلى نحرى فيسلم من أرمى
صبرت ولا والله ما بى جلادة على الصبر لكنى صبرت على رغى
فغناه إياه . وشرب أبو العتاهية ثم قال لمخارق غنى فى قولى :

لهفى على ورق الشباب وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب وبان عنى غير منتظر الإياب
فلأبكين على الشبا ب وطيب أيام العتاب
إنى لأمل أن أخلد والمنية فى طلابى

فغناه مخارق ، وما زال يقترح عليه كل صوت غنى به فى شعره ، فيغنيه
إياه ويشرب ويبكى حتى المساء . ثم هم مخارق بالخروج ، فاستمهله
أبو العتاهية قائلاً : « أحب أن تصير حتى ترى ما أصنع »

فجلس مخارق ، وأمر أبو العتاهية ابنه محمداً وغلما نه فكسروا كل ما

كان في المجلس من أواني النبيذ وأدواته وآلات الطرب حتى لم يبق شيء
ثم نزع ثيابه واغتسل ولبس ثياباً بيضاً من الصوف . ثم عانق مخارقاً وبكى
وقال له :

— السلام عليك يا صديقي ، سلام الفراق الذي لالقاء بعده . وهذا
آخر عهدى بك وبالناس . . .

فطن مخارق أنها بعض حماقات أبي العتاهية الماكن وانصرف عنه .
وبعد مدة عاوده مخارق في منزله فرآه قد أخذ قوصرتين^(١) ، وثقب
أحدهما وأدخل رأسه ويديه فيها وأقامها مقام القميص ، وثقب الأخرى
وأخرج رجله منها ، وأقامها مقام السراويل .

فلما رآه على هذه الحال دهش وضحك ضحكا شديداً ، فقال له أبو العتاهية:
— من أي شيء تضحك يا أخي ؟ . . .

قال مخارق :

— أسخن الله عينك . . أي شيء هذا ؟ !

فقال أبو العتاهية :

— هذا تصوّف وزهد في الدنيا . !

قال مخارق :

— ومن أبلغك أن هذا تصوّف أو أن أحداً من الأنبياء والزهاد

والجنانين ، فعل مثل هذا ؟

(١) الفوصرة بتشديد الراء وعاء يحفظ فيه التمر .

فقال أبو العتاهية : دعنى يا مخارق دعنى :

ألا إنما التقوى هى العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أوحجم
قال مخارق :

— أنت الآن فى هيئة المجانين . وما للتقوى والجنون . أنزع عنك
هذا يا سخين العين . . !

فاستحيا أبو العتاهية من صديقه . ونزع القوصرتين ، وجلس معه
يتحدث فى ماضية وحاضره ، وفى الحياة والموت ، وفى الزهد فى الدنيا
حتى أفرط ، فقال له مخارق :

— أفرطت والله . وأنى لأراك مع حديثك عن الزهد لتحرص على
الدنيا حرص الشحيح . !

وهنا دخل عليهما ثمامة بن أشرس ، فقال أبو العتاهية :
— هيه يا ثمامة . .

قال ثمامة :

— ماذا عندك من الشعر اليوم ؟

قال أبو العتاهية عندى :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو ماله
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته هوالكه

فقال ثمامة : « ومن أين قضيت بهذا ؟ » فقال : « من قول رسول الله صلى الله وسلم أنما لك من مالك ما أكلت فأفנית ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » فقال ثمامة :

— أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟
قال أبو العتاهية : « نعم » قال ثمامة ! « فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ، ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخراً لآخرتك ؟ »

فقال أبو العتاهية : « يا ثمامة والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس » .

قال ثمامة : « ولم تزيد حال من افتقر على حاله ، وأنت دائم الحرص دائم الجمع ، شحيح على نفسك ولا تنفق مما رزقك الله »
فقال أبو العتاهية :

— لو كان رزقى لأنفقتة . . !

كان أبو العتاهية في أول حياته مخنثاً متمتعاً ، وكانت حياته حياة مجون وهو وطرب ، كما كان شعره لا يعدو الغزل والتشبيب ومدح الخلفاء والأمراء وهو خصومهم وخصومه . وقد أثرت في حياته « عتبة » جارية المهدي فأحبها ، وأولع بحبها ، ولكنه صدم في هذا الحب صدمة أضاعت

أمله ، وكان لها ما بعدها من اليأس والقنوط والانصراف عن متاع الدنيا ، واعتزال الناس ، والإقبال على الزهد والتصوف .

وكانت « عتبة » حينما فتن بها أبو العتاهية جارية لريطة ابنة أبي العباس قبل أن تكون جارية للمهدى ولزوجته الخيزران . وذات يوم أرسلتها ريطة إلى عبد الله^(١) بن مالك ليشتري لها رقيقاً . فبينما هي جالسة عنده جاء أبو العتاهية في زى شيخ متنسك . فقال لها :

— جعلني الله فداك شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فإن رأيت أعزك الله شرايى وعتقى ، فعلت مأجورة . . !
فقالت عتبه لعبد الله :

— اشتريه وأعتقه .

فقال أبو العتاهية :

— أتأذنين لى أصلحك الله أن أشكرك ، وأقبل يدك .
فأذنت له بتقبيل يدها ، فقبلها . وانصرف ، فضحك عبد الله ، وقال لها :

« أتدريين من هذا ؟ » قالت : « لا » قال : « أبو العتاهية . وإنما احتال عليك حتى قبل يدك » . !

فذهبت عتبة تشكو إلى مولاتها ريطة ، ثم انتقلت إلى خدمة المهدى فلم ينصرف أبو العتاهية عن حبها والتشبيب بها ، فشكت أمرها إلى

(١) هو صاحب الشرطة في أيام المهدى ، والهادى ، والرشيد

زوجته الخيزران وما يلحقها من التشهير بها ، وأخذت تبكي فدخل المهدي
وهي على هذه الحال فسألها عن حالها ، فأخبرته الخيزران ، فذهب المهدي
وأحضر أبا العتاهية وقال له :

— ما لك وما لعتبة تشهر بها ، وتقول فيها :

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصد والملمات
« فتي وصلتك حتى تشكو صدها عنك ؟ » فقال أبو العتاهية : يا أمير
المؤمنين أنا الذي أقول :

يا ناقُ خبي بنا ولا تعدى نفسك فيما ترين راحت
حتى تجيئني بنا إلى ملك توجه الله بالمهايات
يقول للريح كلما عصفت هل لك ياريح في مباراتي
فلما سمع المهدي ذلك نكس رأسه ، ونكت بالقضيب الأرض ، وقال
ولكنك أنت القائل :

ألا ما لسيدتي مالها أدلاً ، فأحمل إدلالها
وجارية من جوار الإمام قد أسكن الحب سربالها
فقال : يا أمير المؤمنين وأنا القائل :

أنته الخلافة منقادة إليه تجر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه^(١) بنات القلوب ب لما قبل الله أعمالها

(١) بنات القلوب النيات

وَأَنَّ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَغْضٍ لَا إِلَيْهِ لِيُبْغِضَ مِنْ قَالَهَا
فَسَكَتَ الْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قَالَ . وَأَنْتَ الْقَائِلُ :

بِاللَّهِ يَا حُلُوَّةَ الْعَيْنَيْنِ زُورِيْنِي . قَبْلَ الْمَمَاتِ وَإِلَّا فَاسْتَزِيرِيْنِي
هَذَانِ أَمْرَانِ فَاخْتَارِيْ أَحِبَّهُمَا إِلَيْكَ أَوْ لَا فِدَاعِي الْمَوْتِ يَدْعُوْنِي
يَا عُتْبَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَدْعَةٌ خَلَقْتَ مِنْ غَيْرِ طَيْنٍ وَخَلَقَ النَّاسُ مِنْ طَيْنٍ
أَنْى لَأَعْجِبَ مِنْ حُبِّ يَقْرَبْنِي مِمَّنْ يَبَاعِدُنِي عَنْهُ وَيَقْصِيْنِي
ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ فَافْخَمْ أَبُو الْعَتَاهِيَّةُ ، فَأَمَرَ الْمَهْدِيُّ بِجُلْدِهِ ، فَجُلِدَ
وَأُخْرِجَ مَجْلُودًا ، فَلَقِيْتَهُ عْتَبَةً ، وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، فَقَالَ لَهَا :
بِخٍ بِخٍ يَا عُتْبَ مِنْ مِثْلِكُمْ قَدْ قَتَلَ الْمَهْدِيُّ فِيكُمْ قَتِيلًا
فَبَكَتْ عْتَبَةٌ وَفَاضَ دَمْعُهَا وَدَخَلَتْ عَلَى الْخِزْرَانِ تَبْكِي ، فَرَأَاهَا
الْمَهْدِيُّ ، فَقَالَ :

— مَا لَعْتَبَةٍ تَبْكِي ؟ . . .

فَقَالَتْ رَأَتْ أَبَا الْعَتَاهِيَّةَ مَجْلُودًا ، وَقَالَ لَهَا كَيْتُ وَكَيْتُ . فَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ
مِنَ الْمَالِ ، فَفَرَّقَهَا أَبُو الْعَتَاهِيَّةَ عَلَى الْبَابِ ، فَعَلِمَ الْمَهْدِيُّ ، فَقَالَ لَهُ :
— مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَكْرَمْتَكْ بِكَرَامَةٍ ، فَفَرَّقْتُهَا ؟
فَأَجَابَ :

— مَا كُنْتُ لَأَكُلَ ثَمَنَ مَنْ أَحْبَبْتِ . . !

فَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْمَهْدِيُّ بِجَائِزَةٍ أُخْرَى ، وَحَلَفَ عَلَيْهِ أَلَّا يَفْرُقَهَا ، فَأَخَذَهَا
وَبَعَثَ إِلَى الْمَهْدِيِّ يَقُولُ :

نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
 إني لأياس منها ثم يطمعني فيها احتقارك الدنيا وما فيها
 فلما قرأ البيتين همّ أن يدفع إليه « عتبة » فدخلت عليه وقالت :
 - يا أمير المؤمنين . مع حرمتي وخدمتي تدفعني إلى بائع جسرار
 يكتسب بالشعر » . . . فبعث المهدي إليه يقول :
 - أما عتبة فلا سبيل لك إليها . وقد أمرنا لك بملء « البرنية » مالا .
 فلم يعاوده وكانت صدمة . ولكن قلبه بقي مضطرباً حيناً من الزمان ،
 ثم أسلم نفسه الزهد والتصوف

مضى عهد المهدي ، ثم مضى من بعده عهد موسى الهادي . ثم جاء
 عهد هرون الرشيد وكان أبو العتاهية يلازم هرون قبل الخلافة في السفر
 والحضر وكان شاعره الأول فسأل عنه ، فقبل له اعتكف عن الناس ،
 وجاء مخارق المغنى فحدث الرشيدى بحديث القوصرتين ، وما رآه من
 أبي العتاهية فأمر الرشيد باستدعائه ، فحضر ، فقال له :
 - مالك يا اسماعيل تلبس ملابس الزهاد ، وتنصرف عن الناس ؟
 فقال أبو العتاهية :
 - إني تركت الدنيا لأنه لا خير فيها ، وأقبلت على الآخرة لأنها
 خير وأبقى .
 قال الرشيد :
 - وهل تركت الشعر أيضاً ؟

فقال أبو العتاهية :

— إلا ما يعظ ويفكر بالموت .

قال الرشيد :

— ولكنى أريد أن تقول الغزل .

فامتنع أبو العتاهية . فغضب الرشيد وصاح برجاله :

— أحبسوه في المطبق .

فحبسوه في مكان ضيق من هذا السجن ، فصاح أبو العتاهية :
« الموت .. الموت .. أخرجوني . فأنا أقول كل ما شئتم » فقالوا له :
« قل » فقال : « حتى أتففس » فأخرجوه وأعطوه قلمًا وقرطاسًا ودواة ،
فقال أبياته التي أولها :

من لعبد أذله مولاه ما له شافع إليه سواه
يشتكى ما به . إليه وينخشاه ويرجوه مثل ما ينخشاه
ودفع بهذه الأبيات إلى الرشيد ، وقال : « هذه ولا أقول بعدها » .
فأمر الرشيد بإعادته إلى السجن إلا أن يقول الغزل مما يصلح للغناء واللهو ،
فأعيد إلى « المطبق » وأغلق الباب عليه . وإذا هو يتبين في الظلام
رجلاً جالساً في القيد ، فنظر إليه أبو العتاهية ساعة ، ثم سمع الرجل يقول :

تعودت مرَّ الصبر حتى ألفتَه وأسألتني حسنُ العزاء إلى الصبر
وصيرني يأسى من الناس راجياً لحسن صنيع الله من حيث لا أدري

فقال له أبو العتاهية :

— أعد يرحمك الله هذين البيتين .

قال الرجل :

— ويحك أبا العتاهية ، ما أسوأ أدبك ، وأقل عقلك . دخلت على
السجن ، فما سالت تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألت سؤال الحر للحر ،
ولا توجهت توجع المبتلى للمبتلى ، حتى سمعت بيتين من الشعر — الذى
لا فضل فيك غيره — فلم تصبر على استعادتهما . ؟ !

فقال أبو العتاهية :

— يا أخى إنى دهشت لهذه الحال ، فلا تعذلى ، واعذرنى متفضلاً
بذلك . .

قال الرجل :

— أنا والله أولى منك بالدهش والخيرة ، لأنك سجننت فى أن تقول
شعراً به ارتفعت وبلغت . وأنا مأخوذ فى أن أدل على ابن بنت رسول الله
(ص) ليقتل أو أقتل دونه . والله لا أدل عليه أبداً . والساعة يدعى
بى فأقتل . . فأينا أحق بالدهش ؟ ! . . .

فقال أبو العتاهية :

— أنت والله أولى . سلمك الله وكفاك . ولو علمت أن هذه حالك
ما سألتك .

قال الرجل :

— إذن لا أبخل عليك .

وأعاد له البيتين . ثم سأله أبو العتاهية من يكون ، فأجاب :

— أنا داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد .

وبعد برهة سمعا أصوات الأتقال ، فدخل الجند ومعهم الشموع
فأخرجوها ، وقادوها إلى الرشيد . فسأل الرجل عن أحمد بن عيسى .

فقال :

— لا تسألني عنه واصنع بي ما أنت صانع . فوالله لو إنه تحت ثوبي
هذا ما كشفت لك عنه .

فأمر الرشيد بضرب عنقه ، فضرب . ثم التفت إلى أبي العتاهية وقال :

— أظنك قد ارتعت يا إسماعيل . . .

فأجاب أبو العتاهية :

— دون ما رأيت تسيل منه النفوس .

فقال الرشيد :

— أو ما رجعت .

قال : « لا » فقال : « ردوه إلى محبسه ، والله لا يخرج منه حتى

يقول الغزل »

فردوه إليه ، وبينما هو جالس إذ جاء الجند بإبراهيم الموصلي ، وكان
الرشيد قد غضب عليه ، وأمر بحبسه كذلك في المطبخ ، فمكث فيه مدة .

و ذات ليلة جلس الرشيد مع وزيره جعفر بن يحيى البرمكى مجلساً مؤنساً
فغنت إحدى جواريه بيتاً واحداً ، فاستحسنته وطرب طرباً شديداً .

فقال الرشيد : « ما كان أحوجه إلى بيت ثان ليطول الغناء فنستمع
مدة طويلة » فقال جعفر ، وكان يسعى لخلاص أبى العتاهية .

— ليس يصلح لذلك إلا أبو العتاهية ، فهو أقدر عليه وأسرع .
فليبعث أمير المؤمنين إليه :

فقال الرشيد :

— لا يجيبنا وهو محبوس فى أنكد حال .

قال جعفر :

— بلى ، فاكتب إليه حتى تعلم ما أقول .

فكتب الرشيد إليه ألحق لنا بهذا البيت بيتاً آخر ، فأجاب
أبو العتاهية :

شغل المسكين عن تلك الحن فارق الروح وأخلى من بدن
ولقد كلفتُ أمراً عجيباً أسأل التفريح من بيت الحزن
فلما بلغ الرشيد قال لجعفر : « أو لم أقل إنه لا يفعل » فقال جعفر :
« فتخرجه ليفعل » قال الرشيد :

— لا حتى يقول الغزل ، ، فقد حلفت . .

وأقام أبو العتاهية وإبرهيم الموصلى فى « المطبق » حتى ضاق بهما
الحال . وذات يوم قال لإبراهيم :

— إلى متى نقيم في هذه الظلمات . هلم أقل شعراً ، وتغنى فيه . وبعثنا
إلى الرشيد بذلك . فاستدعاهما ، فقال أبو العتاهية :

بأبي من كان في قلبي له مرة حب قليل فسرقت
يا بني العباسي فيكم ملك شعب الإحسان منه تفرقت
إنما هرون خير كله مات كل الشر منذ يوم خلق

فغنى به إبراهيم الموصلي ، ورضى عنهما ، وأزجى إليهما ما عرف عنه
من سخاء ونعماء .

خلع أبو العتاهية رداء التصوف ، وعاد إلى قول الغزل والتشبيب
وما كان من لهو في بعض مجالس الرشيد ، فقال :

يا بن عم النبي سمعاً وطاعة قد خلعنا الكساء والدُّرّاعة
ورجعنا إلى الصناعة لما كان سخط الإمام ترك الصناعة

على أن الرشيد ترك له الحرية في أن يقول ما يشاء من الشعر ، بل كان
يستحسن ما يقوله في الزهد والموت . وبقى أبو العتاهية في هذه الحال إلى
أن مرض مرض الموت^(١) ، فأنشأ أبياتاً ، وقال لابنته « رُقَيَّة » : قومي
يا بنتي فاندبي أباك ، فقامت وندبته بها ، ثم قال هذه الأبيات :

(١) توفي أبو العتاهية في سنة ٢١٣ هـ وله من العمر تسعون سنة

إلهى لا تعذبني فأنى مُقرّةً بالذى قد كان منى
 فما لى حيلة إلا رجائى لعمرك إن عفوت وحسن ظنى
 أجنُّ بزهرة الدنيا جنوناً وأقطع طول عمرى بالتمنى
 ولو أنى صدقتُ الزهد عنها قلبت لأهلها ظهر الجنى
 يظن الناس بى خيراً وإنى لشرُّ الخلق أن لم تعف عنى



الطرب^٢

هذه القصة لزعم الغناء والموسيقى ابراهيم الموصلي وهي تصور جانباً من حياة هذا الفنان النابغة الكبير وتكشف عن جانب اجتماعي آخر من حياة بغداد في ذلك الحين .

وجاء ابراهيم^(١) الموصلي إلى أمير المؤمنين المهدي في قصر الرصافة شارباً منتشياً ، وكان شاباً مرحاً فنظر إليه في غضب ، وقال :
— أما نهيتك يا موصلي عن الخمر واللهو والتبذل ؟ !
فقال ابراهيم :

— يا أمير المؤمنين إنما تعلمت صناعة الغناء اللذّي وعشرتي لإخواني ولو أمكنني تركها لتركته . وجميع ما أنا فيه لله عز وجل .
فغاض ذلك المهدي ، وقال له :

— إذن فلا تدخل على ابني موسى وهرون ، ولا تصحبهما ألبتة .

(١) هو سيد أهل الغناء والموسيقى في عصره . وكان المهدي يؤثره على سائر المغنيين وقد أرادته على ملازمته ، وأقسم عليه ألا يشرب الخمر ، ولا يفنيه وهو سكران وقد ولد ابراهيم بالكوفة سنة ١٢٥ هـ وتوفي ببغداد سنة ١٨٨ هـ في عهد الرشيد وأبوه وأمه فارسيان . وسبب كنيته بالموصلي أنه اشتهى الغناء وهو صبي فلما منعه أهله هرب إلى الموصل . وأقام بها مدة ، فلما عاد قال له اخوانه : « مرحباً بابراهيم الموصلي » فاشتهر به .

فوالله الذى لا إله غيره لئن علمت أنك دخلت عليهما أو صحبتهما لأفعلن
بك ، ولأصنعن . . . !

فقال إبراهيم :

— نعم وسمعا وطاعة لمولاي .

وانصرف . . ثم كان ذات يوم فخرج موسى وهرون للنزهة في ضواحي
بغداد ومعهما خادمهما أبان ، فالتقيا بإبراهيم في طريقهما ، فدعواهُ للخروج ،
وألحا عليه فخرج معهما ، فغناهما وشربرا النبيذ وقضوا معا نزهة ممتعة ،
ولكن ما جاء المساء حتى كان العبد أبان قد سعى بهم إلى المهدي ،
وأخبره بما جرى ، فاستدعى الموصلي ، وقال له :

— أما نهيتك عن مصاحبة موسى وهرون ؟ !

فأقسم أنه لم يرهما ، ولم يصحبهما ، فقال المهدي :

— وتكذب أيضا على الله عز وجل . . !

ثم أمر بجلده ، فأخذ الجلاد يضربه ضربا موجعا حتى كاد يموت فصاح :

— يا أمير المؤمنين إن جرمي ليس من الإجرام التي يحل لك بها

سفك دمي والله لو كان سرُّ ابنك تحت قدمي ما رفعتها عنه ولو قطعنا .

ولو فعلت ذلك لكنت في حالة (أبان) الساعي العبد الحقير .

فزاد غيظ المهدي ، وقال : « وتشتم أبان يا خاسر » ثم ضربه بعمد

سيفه في رأسه فشجه وأغمى عليه ساعة ، ثم أفاق ، فقال المهدي لرئيس

الشرطة عبد الله بن مالك : « خذه إليك يا عبد الله ، فاحبسّه » .

فأخذه عبد الله فحبسه في دار شبيهة بالقبر ، ووكل به جارية تدعى « جَشَّة » كانت تحسن إليه ، ولكنه تأذى مما كان في الدار من نتن وقذارة وحشرات ، فطلب من الجارية أن تأتيه بفحم وكُنْدُر^(١) ، فأتته به فلما أظلمت الدار كاد يخنق فألصق أنفه بنافذة صغيرة حتى خف الدخان وما كاد يستريح حتى رأى حيتين مقبلتين عليه من شق في جانب الغرفة ثم أخذتا تدوران حوله بحفيف شديد ، فارتاع وهَمَّ أن يأخذ واحدة بيمنه والأخرى يسراه ، وليكن ما يكون بينه وبينهما ، فإما قتلها وإما قتلاه ، ولكنه ما كاد يفعل حتى دخلا في الشق الذي خرجا منه ، فنجا . ! .

ومكث في ذلك القبر مدة ، ثم بعث للمهدى ذات يوم هذه الأبيات :
ألا طال ليلى أراعى النجوم . أعالج في الساق كبلًا ثقيلا
بدار الهوان وشرِّ الديار . أسام بها الخسف صبرا جميلا
كثير الأتلاء عند الرخاء . فلما حُبست أراهم قليلا
لطول بلائي . ملَّ الصديق . فلا يأمن خليل خليل
فأخرجه المهدى ، وأحلفه بالطلاق والعناق ، وكل يمين لا فسحة له فيها ألا يدخل على ابنه موسى وهرون ولا يغنيهما فأقسم له وانقطع عنهما .
مكث إبراهيم الموصلي بعيداً عن دار الخليفة ، وعن ولى عهده برأ بقسمه ، وخوفاً من المهدى وانتقامه حتى توفي ، وتولى الخلافة موسى

(١) الكندر لبان الذكر

الهادى ، فطلبه فامتنع إبراهيم واختفى فبعث وراءه العيين حتى أحضره ،
فقال له الهادى :

— مالك يا ابراهيم أطلبك ، فلا تأتيني ؟ !
فقال :

— إننى أقسمت لأبيك ، وأعطيته المواثيق .
قال الهادى :

— لا بأس عليك ادخل إلينا ، فقد أصبح العهد عهدنا ، والأمر
أمرنا ولا ميثاق إلا معنا ، وقد أحلتك مما كنت فيه .
ثم وصله وقربه ، وأصاب منه مالا كثيرا^(١) ، وخيراً جزيلاً ، وبقي
كذلك إلى أن مات الهادى .

وتولى هرون الرشيد ، وقرب إبراهيم كما قرب الهادى ، واتخذه
شادياً فى مجالسه ، مطرباً فى أوقات أنسه ، مسلماً له فى ساعات فراغه ،
وذات عشية استدعاه ، وجاءه مسرور يستعجه لمقابلة أمير المؤمنين ، فخرج
مسرعاً كأنه الراكض ، حتى جاء قصر الخلد فدخل على الرشيد ، فإذا
هو جالس على كرسى فى صحن القصر الواسع وكان يؤثر الجلوس فى الصحون
الواسعة ، وليس معه غير خادم يسقيه النبيذ ، وعليه غلالة رقيقة ، وقد

(١) قال اسحاق بن ابراهيم الموصلى أخذ أبى من الهادى فى يوم واحد مائة
وخمسين الف دينار ولو عاش لنا لبئنا حيطان دورنا بالذهب والفضة

توشح بإزار سنديّ عريض العلم مضرّج ، فلما رأى إبراهيم هشّ له
وسر . وقال :

— تعال يا موصلي . . إني اشتيت أن أجلس في هذا الصحن ،
فلم يتفق لي إلا اليوم وأحببت ألا يكون معي أحد غيرك .
ثم صاح بالخدم ، فوافاه مائة وصيف . وإذا هم بالأروقة مستترون
بالأساطين في انتظار أمره ، وإجابة ندائه ، فأمر بمقعد ، فجاءوا به وجلس
عليه إبراهيم ، فقال له الرشيد :

— أطر بني بما قدرت يا إبراهيم .

ف فعل حتى طرب الرشيد . وإنيهما لكذلك إذا بمسرور يدخل عليه ،
ويستأذن في كلمة ثم يدنو منه ويلقى في أذنه كلاماً بصوت خفي ، فيظهر
الغضبُ على الرشيد ، وتحمّر عيناه وتنتفخ أوداجه . ثم يقول :
— حتام أصبر على آل بني طالب . والله لأقتلنهم ، ولأقتلن شيعتهم
ولأفعلن ، ولأفعلن . . !

فلما رآه إبراهيم قد تغيرت حاله ، أراد أن يسرّي عنه ، ويزيل
ما عكر صفاءه ، فاندفع يغني :

نعم عوناً على الهموم ثلاثُ مترعات من بعدهن ثلاثُ
بعدها أربع تنمة عشر لا بطاء لكنهن حثاثُ
فإذا ناولتكهن جوار عطرات بيض الوجوه خنثُ
تم فيها لك السرور وما طيّ ب عيشاً إلا الخنث الإناثُ

فقال الرشيد :

— ويلك . . هات أيها الساقى ثلاثاً . . لا أموت همّاً .

فشرب ثلاثاً متعاقبة . ثم قال لإبراهيم : « غنّ . وأعد ما غنيتّه » .
فغنى ، فلما قال :

« ثلاث مترعات من بعدهن ثلاث »

قال للساقى : « هات ويلك ثلاثاً أخرى » فشرب ثلاثاً متعاقبة . ثم
قال لإبراهيم « غن يا إبراهيم » فغنى ، فقال للساقى : « حُثّ علىّ بأربع
تعمة العشر » ففعل الساقى وطرب الرشيد حتى إذا سكر قال لإبراهيم :
— قم يا موصلى ، فانصرف . ثم بكر علىّ غداً حتى نصطبّح .
فأجاب إبراهيم :

— سمعاً وطاعة . أنا والصبح كفرسى رهان .

ثم كان الصباح ، فبكر إبراهيم ، ودخل على الرشيد فى قصر^(١) الخلد ،
فرأى بين يديه جارية حسناء كأنها خُوط بانٍ أو جدل عنان ، جميلة القد
ساحرة باهرة . وفى يدها عود ، وعليها غلالة شفافة ، فقال لها الرشيد
« غن » فغنت فى شعر أبى نواس :

توهمه قلبى ، فأصبح خده وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومر بفكرى خاطراً فخرحته . ولم أر جسماً قط يجرحه الفكر

(١) بنى هذا القصر أبو جعفر المنصور على الضفة الغربية من نهر دجلة . وكان
الرشيد يفضل الإقامة فيه كثيراً .

وصاحفه قلبي فآلم كفه فمن غمز قلبي في أنامله عقرُ

فطرب الرشيد ، والتفت إلى إبراهيم ، وقال له :

— هل طربت ؟

قال :

— نعم يا أمير المؤمنين ، ومن تلك الجارية ؟

فقال الرشيد : هذه التي يقول فيها الشاعر :

لها قلبي الغداة ، وقلبي لي فنحن كذاك في جسدين روحُ

ثم قال لها : « غنى » فغنت من شعر أبي الشيص :

تقول غداة البين إحدى نسائهم لي الكبد الحرقى ، فسر ولك الصبرُ

وقد خنقتها عبرة فدموعها على خدها بيض وفي نحرها صُفْرُ

فطرب الرشيد ، وشرب وسقى إبراهيم . ثم قال : « غن يا موصلي »

فغنى بما في قلبه من تأثر بهذه الجارية الحسنة ، فقال :

تشرَّب قلبي حبها ومشى به تمشى حياء الكأس في جسم شاربٍ

ودب هواها في عظامي فشققها كما دب في الملسوع سم العقارب

ففطن الرشيد لتعريضه بالجارية ، فأمره بالسكوت والانصراف ،

فقام ولم يدعه الرشيد إليه شهراً كاملاً ، ولا اجترأ على حضور مجلسه .

حتى إذا كان ذات يوم دس الرشيد إليه خادماً معه رقعة مكتوب فيها على

لسان الجارية الحسنة :

قد تخوّفت أن أموت من الوجـد ولم يدر من هويتُ بما بي

يا كِتَابِي فاقِرَ السلام على من لا أُسَمِّي وقل له يا كِتَابِي .
إن كَفَّاً إِلَيْكَ قد بعثتني في شقاء مواصل وعذاب
فأتاه الخادم بالرقعة ، فقال له إبراهيم :
— ما هذا ؟

— رقعة من فلانة جارية أمير المؤمنين .
فأحس إبراهيم بالسيسة ، فوثب على الخادم ، فضربه حتى كاد يقتله
وركب إلى الرشيد من فوره ، وأخبره القصة ، وأعطاه الرقعة ، فضحك
الرشيد ، وقال له :

— على عمد فعلت ذلك بك لأمتحنك . . .

فقال إبراهيم :

الحمد لله الذي جعلني عند حسن ظن أمير المؤمنين ا

وحضر الخادم فلما رأى إبراهيم قال له :

— ويحك كدت والله تقتلني ، قطع الله يديك ورجليك . ا

فقال له إبراهيم :

— القتل والله كان بعض حَقِّكَ لما فعلت ، ولكني رحمتك فأبقيت

عليك ، وتركت لأمر المؤمنين ليأتي في عقوبتك بما تستحقه ؟

فابتسم الرشيد ، وقال :

— لا بأس عليك يا موصلي وإني أدعوك غداً لمجلس أنسى ، فلا

تشغل نفسك بشيء ولا تشرب نبيذاً ، وكن بحضرتي في وقت العشاء ،

فإنه ليس عندي غيرك من المغنين .

فقال إبراهيم :

— السمع والطاعة لأمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— إياك أن تتأخر . وحق أبي لئن تأخرت أو اعتللت بشيء لأضربن

عنقك أفهمت ؟ . .

قال إبراهيم :

— نعم يا أمير المؤمنين ، فوالله لا أعدل بك أحداً . .

خرج إبراهيم الموصلي ، وفي عنقه موعد الخليفة ، وفي عزمه الذهاب إليه في عشية اليوم التالي ، فاعتذر عن كل عمل ، وانصرف عن كل صديق حتى إذا اقترب الموعد خرج قاصداً قصر الخلد حيث الرشيد في انتظاره . وبينما كان في طريقه مر بأحد منازل بغداد ، فرأى نافذة مفتوحة وقد تدلى منها زنبيل كبير مستوثق منه بحبال . ووقفت بجانبه جارية تنتظر إنساناً ليجلس فيه .

فنازعت إبراهيم نفسه الجلوس في الزنبيل ، وأغراه حب الاستطلاع بالصعود إلى هذا المنزل المجهول ، ولكنه تذكر وعد الخليفة وتذكر إيعاده بالهلاك ، إذا هو تأخر عن الحضور ، وما زال ينازع نفسه ، ونفسه تنازعه حتى غلب على أمره ، فجلس في الزنبيل ، وما كاد يجلس فيه حتى رفع إلى أعلى ، فدخل فإذا بالمنزل جوار كأنهن المها رشاقة وقدأ ، أو كأنهن

الزهور نضارة ونداء ، فتضاحكن وقلن « جاء والله من أردنا » . ثم اقتربن منه ، فأنكرنه وتسارعن إلى الحجاب ، وقلن :
— يا عدو الله ما أدخلك إلينا ؟ . .

فأجابهن :

— يا عدوات الله . ومن الذى أردتن إدخاله ؟ ولم صار أولى بهذا منى ؟ . . فضحككن ، وقالت إحداهن :

— أما من أردناه ، فقد فات ، وما هذا إلا ظريف ، فهلم نعاشره عشرة جميلة ، ونجلس معه مجلساً لطيفاً

وجلس إبراهيم بينهن ، فاحضرن النبيذ ، فشرب وشربن ، ثم تقدمت ثلاث جوار ، فغنين غناء مليحاً ، فغنت إحداهن صوتاً لمعبد ، فقالت إحدى الجوارى « هذا لإبراهيم . احسن والله » ! فقال : « كذبت هذا لمعبد » قالت : « يا فاسق وما يدريك الغناء » . ثم غنت الأخرى صوتاً للغريص ، فقالت تلك الجارية : « أحسن إبراهيم . هذا أيضاً له » فقال : « كذبت ليس هذا له » فقالت : « ويلك وما يدريك ! » ثم غنت الثالثة صوتاً لإبراهيم ، فقالت تلك الجارية « أحسن ابن سريح هذا له » قال إبراهيم : « كذبت هذا لإبراهيم ، وأنت تنسبين غناء الناس إليه وغناؤه إليهم » . فقالت : « ويحك وما يدريك » قال لها :

— أنا إبراهيم

فتباشر الجوارى وطربن ، وظهرن كلهن له ، وقلن : « كتمتنا أنفسك
وقد سررتنا » .

فقال لهن : « أنا الآن أستودعكن الله » .

قلن : « وما السبب ؟ » .

فأخبرهن بقصته مع الرشيد ، فضحكن وقلن : « الآن طاب والله
حبسك . علينا وعلينا إن خرجت أسبوعاً » . . .

فقال :

— هو والله القتل .. !

قلن :

— إلى لعنة الله .. !

فأقام إبراهيم عندهن أسبوعاً ، ثم ودعنه ، وقلن : « إن سلمك الله
فأنت بعد ثلاث عندنا » . فقال : « نعم » . ثم أجلسنه في الزمبيل
وأنزله ، فمضى .

كان النداء قد أشيع ببغداد في طلب إبراهيم الموصلي ، ووعد الخليفة
كل من أحضره بالجوائز ، فذهب إبراهيم إلى الرشيد ، فتبادر الخدم
حتى أدخلوه عليه فلما رآه نظر إليه مغضباً ، وقال :

— السيف والنطع . . إيه يا إبراهيم . . تتهاون بأمرى ، وتشتغل
بالعوام عن مجلسى ، وتلهو مع أشباهك السفهاء لتفسد على لذتى ؟ ! ...

فأجاب :

— يا أمير المؤمنين . . أنا بين يدك . وما أمرت به غير فائت . ولى حديث عجيب وهو الذى قطعنى عنك كرهاً لا اختياراً ، فاسمعه ، فإن كان عذراً ، فاقبله وإلا فأنت أعلم .

قال الرشيد :

— هات فليس ينجيك . !

فقص عليه إبراهيم قصة الجوارى والزنبيل . فسكت ساعة ، ثم قال :

— إن هذا لعجب . أفتحضرنى معك هذا المنزل ؟

قال إبراهيم :

— نعم وأجلاسك معهن إن شئت قبلى حتى تحصل عندهن ، وإن شئت فعلى موعد .

قال الرشيد : « بل على موعد » فقال : « أفعل »

وذهب إبراهيم إلى الجوارى ، فقال لهن : « إن لى أخاً هو عِدْل نفسى . وقد أحب زيارتكن ووعدت بذلك »

فقالت الجوارى : « إن كنت ترضاه فمرحباً به . »

وتواعد وإياهن على الليلة التالية ، وانصرف إلى الرشيد ، فأخبره . فلما كان الموعد خرجا معاً متخفيين حتى أتيا القصر ، فوجدا الزنبيل ، فصعد إبراهيم أولاً ، ثم صعد الرشيد ، وكان قد أمره ألا يخاطبه بأمر المؤمنين بينهم ، واستقبلتهما الجوارى ، فلما رآهن الرشيد ورأينه عرفهن

وعرفنه فتواثبن واختفين ، فاستدعاهن الرشيد ، فحضرن ، وأحضرن
النبيذ ، فشرب وشرب إبراهيم وشربن ، ثم أخذ بعضهن في الغناء
فغنت إحداهن :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فإني إلى أصواتكن حزين
فعدن ، فلما عدن كدن يمتنى وكدت بأسرارى لهن أئين
دعون بترداد الهدير كأنما سقين حمياً أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حماماً بكين ولم تدمع لهن عيون

فطرب الرشيدى ، ثم قام وقام إبراهيم ، ونزلا من القصر . وإذا هؤلاء
الجوارى للخليفة ، وكان قد غضب عليهن . ثم وجه إليهن في الغد بخدم
فأعادهن إلى قصره .

بقى إبراهيم في خدمة الرشيد ، وكان سيد عصره في الغناء ولم يكن
ينازعه تلك المكانة غير ابن جامع . حتى إذا كانت سنة ١٨٨ هـ مرض
واشتد عليه المرض فانقطع في داره عن خدمة الخليفة . وجاءه هرون
الرشيد يعود يوماً في منزله ، فقال له :

— كيف أنت يا إبراهيم ؟

فقال أنا والله يا سيدى كما قال الشاعر :

سقيم ملّ منه أقربوه وأسلمه المداوى والحميم

قال الرشيد : « إنا لله » ! وخرج فلم يبعد حتى سمع نعيه . وقد مات
 في يومه الكسائي النحوى . وعباس بن الأحنف الشاعر ، فأمر الرشيد ابنه
 المأمون أن يصلى عليهم ، فخرج للصلاة ، فأمر بتقديم عباس بن الأحنف
 فصلّى عليه ، ثم صلى على إبراهيم ، ففعل له :
 — كيف آثرت العباس بالتقدمة !

قال لقوله :

وسبى بها ناس فقالوا إنها لى التى تشقى بها وتكابدُ
 فحدثهم ليكون غيرك ظنهم أنى ليعجبني الحب الجاحدُ



زُبَيْدَة

كانت زوجة الرشيد « أم جعفر زبيدة (١) »
أعظم ركن في القضاء على البرامكة ونكبتهم
الشهيرة ، ولم يمن المؤرخون بهذه الناحية التي
تراها مستوفاة في هذه القصة وهي تصور حياة
هذه السيدة الشهيرة والدور الذي لعبته في تلك
الحادثة تصويراً دقيقاً ... ١

وجلس هرون الرشيد في قصر الخلد على سرير من الذهب مرصع
بالجواهر ، ووراءه حارسان بيد كل منهما سيف مسلول ، وقد نصب السرير
فوق سُدَّة في صدر الإيوان قائمة على عمد قصيرة من الأبنوس المنزل فيه
العاج . وسقفها من الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم فنية جميلة ،
وازدانت جاشيتها من الأمام والجانبين بأهلة من الذهب ، مدلاة فيها درر
من الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق على نظام باهر بديع .

وقد ارتدى الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبي صلى الله عليه وسلم
وفي يده الخاتم والقضيب وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء
من الخز الموشى ، وبين ثنايا العمامة عقود من الجواهر السمين ، وفي مقدمتها

(١) زبيدة زوجة الرشيد ، وكنيتها أم جعفر وهي ابنة جعفر بن أبي جعفر المصور
تزوجها الرشيد سنة ١٦٥ هـ ، وولدت له محمد الأمين وتوفيت سنة ٢١٦ هـ في عهد المأمون

فوق الجبهة طُرَّة من أسلاك الذهب المرصع بالزمرد والياقوت على هيئة
عرف الطاووس .

وعلى مقربة منه جلس وزيره جعفر البرمكي وبعض قواده وعلى رأسهم
كبيرهم هرثمة بن أعين، وكان قد انتهى من الوفد الذي أرسله اليه ملك الهند
ثم استأذن عليه رجل من بلدة « مرو » بخراسان ، فأذن له ، فلما مثل بين
يديه قال الرجل :

— يا أمير المؤمنين نصيحة . . . !

فالتفت الرشيد إلى هرثمة بن أعين وقال :

— خذ الرجل اليك وسبله عن نصيحته . . .

فأبى الرجل وقال :

— هي سر من أسرار الخليفة لا أطلع عليه سواه .

فقال الرشيد :

— إذن فعندك حتى أفرغ . .

وخرج ، فانتظر في إحدى الغرف حتى فرغ أمير المؤمنين من شئونه ،

ثم دعا بالرجل فقال له :

— هات ما عندك ! .

قال الرجل :

— أخلني يا أمير المؤمنين .

فالتفت إلى وزيره وقواده ، وقال « انصرفوا يا رجال » ، فانصرفوا

وبقى حسن وخاقان حارساه ، فنظر إليهما الرجل ، فقال الرشيد : « تنحيا
عني » ففعلا ثم أقبل على الرجل ، وقال :

— ماذا وراءك ؟

فقال الرجل :

— كنت يا أمير المؤمنين بملوان في خان من خاناتها ، فاذا أنا
بيحيي^(١) بن عبد الله العلوي في دراعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر ،
وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا رحل ، ويكونون منه
بصدد ، يوهمون من رأيهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه ، ومع كل واحد
منهم منشور ، يوزعه على كل من يأمن له . وقد رأيت فيهم من رجال
يحيي^(٢) بن خالد البرمكي من يشايعونه في السر ، ويتظاهرون بالولاء
لأمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— أو تعرف يحيي بن عبد الله ؟

فقال الرجل :

— أعرفه قديماً ، وذلك ما حقق معرفتي به في هذه الحال .

— صفه لي . . .

(١) هو يحيي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أحد زعماء العلويين

(٢) يحيي بن خالد البرمكي والد جعفر ، ومربي الرشيد ، ووزيره ومستشاره الأول قبل
أن يفتك بالبرامكة

— مربوع أسمر اللون رقيق السمرة أجلح^(١)، حسن العينين عظيم
البطن

— صدقت ، هو ذاك ، فماذا سمعته يقول ؟

— ما سمعته يقول شيئاً . . غير أنى رأيته يصلى ورأيت غلاماً من
غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب
فألقيه في عنقه ، ونزع جيبته الصوف ، فلما كان بعد الزوال صلى صلاة
ظننتها العصر ، وأنا أرمقه ، أطل في الأوليين ، وخفف في الآخرين .
— لله أبوك . إنك لصادق فيما حفظت . نعم تلك صلاة العصر وذاك
وقتها عند القوم . أحسن الله جزاءك وشكر سعيك . . فمن أنت ؟

— أنا رجل من أعقاب هذه الدولة ، وأصلى من مرو ، ومولدى مدينة
بغداد .

فقال الرشيد : وكيف احتمالك لمكروه تمتحن به في طاعتي ؟

قال الرجل :

— أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين

فقال الرشيد : كن بمكانك حتى أرجع .

ثم قام الرشيد ، فأتى بكيس فيه ألف دينار ، فدفعا إلى الرجل وهو
يقول له :

(١) الأجلح الذى انحسر شعره عن جانبي رأسه

— خذها ودعني وما أدبر فيك .

فأخذها الرجل ، وخبأها في ثوبه ، ونادى الرشيد « يا غلام » فأجابه
حارساه « حسين وخاقان » فقال لهما مشيراً اليه :

— اصفعا ابن اللخناء .

فصفعا عدة صفعات . ثم قال لهما : « اخرجاه إلى من بقي في القصر
وعمامته في عنقه ، وقولا هذا جزاء من يسعى ببطانة أمير المؤمنين
وأوليائه » !

كان الرشيد يكره العلويين وشيعتهم كسائر العباسيين ، ويخافهم على
دولته ، وكان زعيم الشيعة وداعيتها في خراسان في ذلك الحين يحيى بن
عبد الله أخو محمد بن عبد الله الذي حاربه المنصور وظفر عليه وقتله
فقام يحيى بعده بالدعوة في بلاد الديلم سنة ١٧٦ هـ ، وعلم الرشيد بأمره
وتعقبه في كل مكان ، وكان يشجع كل من يأتيه بخبره ثم أرسل اليه
الفضل بن يحيى البرمكي على رأس جيش كبير لمحاربتة ، وكان الفضل
كسائر البرامكة يخفون عن الرشيد تشيعهم للعلويين سرّاً ، لذلك اختار
مصالحة يحيى على الحرب ، وضمن له الأمان فأجابه يحيى ، وعاد معه إلى
بغداد ، فأكرم الرشيد مثواه ، وأمنه زمناً ، ثم أفسدت الدسائس ما
بينهما ، وتشكك الرشيد في أمره ، فكبّله بالحديد ، ودعا بوزيره جعفر

ابن يحيى البرمكى واستشاره فى أمره ، فأشار بحبسه عنده على أن يضمه ،
فدفعه اليه قائلاً . . !

— هوفى ضمانك ، وفراره عليك :

قال :

— نعم يا أمير المؤمنين .

وأخذه جعفر ، وحبسه فى بعض داره ، وأقام حوله الحراس ، وكان يصله
ويزوره سرّاً حتى إذا كان ذات يوم زاره فيه جعفر توسل به يحيى ، وألح
فى توسله ليطلقه من سجنه ، وقال له :

— يا جعفر اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض لأن يكون خصمك غداً
جدى محمد صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً
ولا تعرضت لما يكره أمير المؤمنين .

فرق له جعفر ، وتحرك فى نفسه ما يخفيه من التشيع للعلويين ، وأطلقه
قائلاً :

— اذهب حيث شئت من بلاد الله ، ولا تظهر لأمر المؤمنين . !

فقال :

— وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل ، فأرد اليك أو إلى
أحد غيرك .

فبعث جعفر معه من تسلل به ، وأداه إلى مأمنه . !

و بلغ الخبر الفضل^(١) بن الربيع ، فبعث به إلى زبيدة زوجة الرشيد ، وكانت زبيدة شديدة العصبية لبني العباس ، وقد أقلقها نفوذ البرامكة ، واتساع سلطانهم وضعف النفوذ العربي في ذلك الحين ، وحققت على جعفر وآله ، وزاد في حقدها ما فعله في ابنها الأمين ، وتقديم المأمون عليه وهو ابن ضرته « مراجل » الفارسية ، ومبايعته بالعهد في يوم واحد مع الأمين . وقد استعانت بالفضل بن الربيع في الكيد للبرامكة ، وتدمير المؤامرة ضدهم ، وكان الفضل ينتهز كل فرصة للايقاع بهم والخط من شأنهم ، وكانت قصرها « دار القرار » على شاطئ نهر دجلة مقصداً لصنائعها وعيونها من الجوارى والغلمان الذين يتجسسون على البرامكة ، وينقلون إليها الأخبار . فلما علمت بفرار يحيى بن عبد الله أنبأت هرون الرشيد وقصت عليه ما حدث . فاغتاظ وتغير ما في نفسه ، ولكنه كظم غيظه وأخفى غضبه ، وكان اليوم الثاني فذهب إلى مجلسه ، وجاء جعفر ابن يحيى فجلس مكانه وجلس القواد ورجال الدولة ، فنظر الرشيد إلى جعفر وقال :

— ما حال يحيى بن عبد الله العلوى يا جعفر ! .

فأجاب :

— هو كما أمر أمير المؤمنين في الأكبال والحبس الضيق . . !

(١) الفضل بن الربيع بن يونس ، وكان والده وزيراً المنصور والمهدى ، وقد حل محله في الوزارة والدولة يحيى البرامكي وجعفر ابنه في ذلك الحين

قال :

— بحياتي . . . !

فأحجم جعفر ، وكان من أدق الناس ذهنًا ، وأسرعهم فكرًا ، وأيقن
أن الرشيد علم . . .
فقال :

— لا ، وحياتك ياسيدي . . . ولكن أطلقته ، فقد علمت بعد أن
لامكروه عنده ورأيت أن عفو أمير المؤمنين يتسع لمثله . ولولا ذلك
ما أطلقته . . . !

قال الرشيد ، وهو يكبت غيظه :

— نعم ما فعلت يا جعفر ، ما عدلت عما كان في نفسي . . . !
وقام الرشيد ، وانفض مجلس الخليفة ، وأذن لوزيره بالانصراف ، فلما
انصرف أتبعه ببصره إلى أن توارى وهو يقول :

— قتلى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك . . . !

* * *

ذهب الرشيد مُحَنَقًا مفكرًا ، وأقلقه التفكير في شأن جعفر وآله الأبرامكة ،
وتشيعهم للعلويين على الرغم من تقريبه لهم ، وإيثارهم عنده على سواهم ،
وزاد في قلقه أنه أتاح لهم الجاه والنفوذ ، وكثرة الأنصار وسعة السلطان ،
وملكهم مقاليد الدولة وشئون الخلافة ، فكيف الخلاص منهم ، وقد بات
لا يأمن انقلابهم عليه ، وسلبه ملكه ونقله للعلويين .

لا بد أن يحمى نفسه ويحافظ على تراث أبي العباس والمنصور ،
ويضحى بكل شيء فى هذا السبيل .. اهتم الرشيد وشملته الهزوم والخوف
وعلمت زبيدة أن الرشيد مهموم ، وأنه جالس وحده فى قصر الخلد ليس
عنده أحد من الندماء ، فبعثت إليه تقول :

— يا أمير المؤمنين إني لم أرك منذ ثلاثة أيام . وهذا اليوم الرابع .
فأرسل إليها :

— عندى ابن جامع وقد حضر الآن بآلات الطرب .
فأرسلت :

— أنت تعلم أنى لا أهنأ بشراب أو سماع إلا أن تشاركنى فيه ، فما
كان عليك إذا شاركتك فى الذى أنت فيه .

وكان الرشيد يحبها ولا يرد لها طلباً ، وكانت جميلة الصورة ، مشرقة
الوجه ، صغيرة الفم سوداء العينين ، بيضاء البشرة ، طويلة القامة مع سمن
قليل ، يزينها وقار الهاشميين ، وكانت ترتدى رداء من الحرير ، وتمنطق
فوقه بمنطقة مذهب مرصعة بالجواهر ، وترسل شعرها على كتفها وتعصب
رأسها بعصابة بسيطة من الوشى المطرز . وكان جمالها يغنيها عن التحلى
بالذهب والماس . ولكنها تحلى خفيها بالجواهر النفيس .

وكانت إذا جلست حفت بها الجوارى الحسان من كل جانب ، وعلى
رءوسهن العائيم ، وفى أوساطهن مناطق الذهب والفضة ، وفى أيدي

بعضهن جامات المسك ، وفي أيدي البعض الآخر قوارير الطيب . فبعث
إليها الرشيد يقول :

— يا أم جعفر إني سائر إليك اليوم ، فأعدّي لنا مجلساً حسناً .
فأمرت الجوارى والغلمان ففرشوا الحديقة بالبسط والسجاجيد ، وأقاموا
ستائر الديباج المطرزة بالقصب ، والمنقوشة بالنقوش البديعة ، وأبيات الشعر
الرشيق ، وأضاءوا شموع العنبر على منائر الذهب ، وأشاعوا في القصر رائحة
المسك ، وزانوا قاعاته بعرائس الزهور . وحضرت الجوارى المغنيات
بآلات الطرب . وقد ازدانت كل جارية منهن أجمل زينة ، وبعثت
« زبيدة »^(١) لعليّة بنت المهدي أن تحضر عندها في ذلك اليوم .

فحضرت عليّة واستعدت الجوارى . ولما انتهى الرشيد من صلاة العصر
ذهب إلى « دار القرار » وما كاد يجلس قليلاً في مكانه حتى خرج
الجوارى وكاهن في صوت واحد ينشدن :

منفصلٌ عني وما قلبي عنه منفصلٌ

يا قاطعي اليوم لمن نويت بعدى أن تصل

فابتسم الرشيد وطرب طرباً شديداً ، وقام على رجله حتى استقبل
زُبيدة وعليّة وهو في غاية السرور ، وقال لهما : « لم أراك اليوم قط » .
ثم قال لعليّة : « هات ما عندك » فغنت :

(١) كانت عليه بضم العين أخت الرشيد من أحسن الناس صوتاً ، وأعلمهم بالشعر
وأقدرهم على الغناء .

طال تكذبي وتصديقي لم أجد عهداً لمخلوق
إن ناساً في الهوى غدروا أحدثوا نقض المواثيق
لا تراني بعدهم أبداً أشتكى عشقاً لمعشوق
فهز الرشيد رأسه وقال :

— ويحك يا عليّة . . نعم لم أجد عهداً لمخلوق .
ثم جعل يرددّها مراراً ، وسكت ، فسكت من في المجلس ، وظهر
التفكير على الرشيد وأشار بيده ، فانصرفت الجوارى وخرجت عليّة
وخلت القاعة إلا من الرشيد وزبيدة فقالت :
— ما لأمر المؤمنين قد سكت واكتأب ، وكان منذ آونة ضاحكا
طروباً ؟ ! . .

فلم يجبها ، فأعادت عليه السؤال ، فأجابها بعد برهة :
— هل بلغك ما فعله جعفر البرمكي . هذا الوزير الذي اتخذته أخاً ،
وأتمنته على شئون دولتي ، وخاصة أمري ، وسمحت له بالدخول معي على
حريمي ، وقد وثقت به ومكنت له ولأهله النفوذ والسلطان ، وآثرتهم
حتى على ذوى عصييتي من بني هاشم ؟ .
قالت زبيدة وهي تتجاهل :
— وماذا فعل ؟ ! . .

قال الرشيد :
— أطلق يحيى بن عبد الله العلوي بعد أن قبضنا عليه بشق النفس ،

وأما شره ، وكفيت ثورة أشياعه بخراسان . ولقد كنت أشك فيما كان
يصلني عن جعفر والبرامكة من تشيعهم للعلويين .

« ولكنني بعد ما رأيت من دفاع أبيه عنهم ، ومساعدتهم لهم سرّاً ، ثم
ما رأيت من إطلاق جعفر لزعيمهم وداعيتهم ، أصبحت لا آمنهم على
شيء أبداً .

قال الرشيد ذلك بغضب شديد ، فضحكت زبيدة ضحكة عالية ، فدهش
الرشيد وقال لها :

— وما يضحكك يا زبيدة . . أما تغضبين لغضبي ؟ !

قالت زبيدة :

— أضحك يا مولاي لأنك كنت تضحك مما أقوله لك عن جعفر بن
يحيى وآله وتهزأ مني ، وتقول أنك عربية وهو فارسي ، وما أظن يا زبيدة
إلا أنك تتعصبين لقومك .

— نعم كنت أظن ذلك . . .

— وهل أيقنت الآن يا أمير المؤمنين بما قلته لك ، وقاله الفضل بن
الربيع ، وهل عرفت أن جعفر وآله البرامكة هم أعدى أعدائك ،
وإذا تماديت في تركهم مسيطرين على هذه الدولة سينقلون الأمر
إلى العلويين . وأشياعهم في خراسان كثير .

— وماذا أعمل يا زبيدة ، وقد مكنت لهم ، ورفعت شأنهم ، وكثرت
أشياعهم . ومن قبل كانوا أعوان أبي وجدي .

— يا أمير المؤمنين . . ما أظنهم إلا أعداء أبيك وجدك ، بل هم أعداء كل عباسى فى هذه الدولة . . أو نسيت أن لهم ثأراً عند جدك المنصور منذ قتل شيخهم أبا مسلم الخراسانى وهم يتر بصون بأبنائه الدوائر ويعملون للانتقام .
— ولكنهم يا زبيدة خدموا دولتنا ، وأعانونا على العلم والدين ، وكانوا الأساطين التى قام عليها ملك بنى العباس .

— ما كان لهم ذلك لولا دعوتنا والتفاف الناس حولنا ، ولا يخذعناك منهم هذا النفاق فى الإخلاص ، والتظاهر بالولاء ، فهم يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، ويأتون فى الخفاء ما لا يظهر لك فى العلانية . .
— وهل فعلوا غير ما سمعته ورأيتة ؟ !

فهزت زبيدة رأسها ، وقالت :
— لقد خانوك يا أمير المؤمنين . . نعم خانوك فى أهلك بما هو أشنع من إطلاق جعفر ليحيى العلوى من سجنه . . .
فاعتدل الرشيد فى مكانه ونظر إليها فى اهتمام ، وقال :
— ماذا تقولين . . خانونى فى أهلى . . !

فسكتت زبيدة ، فصاح الرشيد :
— قولى . . خانونى فى أهلى . . ماذا أسرعى . . حدثينى . .
— لا أستطيع أن أقول . . إن لسانى لا يساعدنى على أن أفضى إليك بهذه الخيانة الشنعاء . !
— لا بد أن تقولى . .

— إني أشير إليها إشارة صغيرة .
— لا ، بل قولى كل شىء . . قولى ما عندك ، فوالله لا أبرح هذا
المكان حتى أسمع منك هذه الخيانة .
قالت زبيدة :

— أختك العباسة . . . !

قال الرشيد :

— ما شأنها ؟ !

— ألم تسمح لها بحضور مجلسك وجعفر معك . .

— بلى . . وماذا كان فى ذلك ؟

— أولم تقل لجعفر أزوجك إياها ليحل لك النظر إليها إذا حضرت
مجلسى ؟

— بلى . . وقد حدث . .

— أولم تشرط عليه ألا يقربها كما يقرب الرجل زوجته . !

— بلى . . وقد وعد . .

— وهل تعلم أنه وفى بوعدده ؟ !

قال الرشيد ، وقد احمر وجهه غيظاً :

— ماذا تقولين ؟ !

— أقول إنه لم يف بوعدده . . ولست أقول غير ذلك ، ولكن

أبعث في طلب « ارجوان » خادم أختك العباسة ، واسأله ، وهدده بالقتل حتى يكشف لك ما يعلم .

فبعث الرشيد في طلب ارجوان ، فحضر فوراً إلى دار القرار ، فلما رآه الرشيد صاح :

— احضروا مسروراً . وليحضر معه السيف والنطع . !

فأوجس ارجوان شراً ، وقال :

— أصلح الله الأمير . . لماذا يدعوني ؟

قال الرشيد :

— ستعلم . . .

ثم نادى مسروراً أن يأخذ بيده ، فارتجف ارجوان ، وقال :

— الأمان يا أمير المؤمنين . . ماذا فعلت ؟ .

وجثا يقبل قدميه ، فقال الرشيد :

— برئت من المهدي ، إن لم أقتلك ، أو تصدقني نبأ العباسة وجعفر

فبكي ارجوان ، وتلعثم من الخوف ، فقال الرشيد :

— أني أعلم كل شيء ، فأصدقني .

فايقن ارجوان أنه يعلم تفاصيل ما بين العباسة وجعفر ، فقص عليه

نبأهما ، وأعلمه أن العباسة قد ولدت من جعفر ولداً ، وأرسلته إلى المدينة

(١) مسرور خادم الرشيد ، وكان موكلاً بقتل من يأمر الرشيد بقتله ، وكان غليظ

القلب يفاخر بعدد من قتلهم

مع حاضنة له حتى يكون بعيداً عن عيون أمير المؤمنين .
قال الرشيد :

— وكيف يحدث ذلك ، ثم لا تخبرني ؟ !

فقال أرجوان :

— أنك أمرتني ألا أ منع جعفرأ من الدخول على أهلك ليلاً أو نهاراً
فلما سمع الرشيد ذلك كاد يتميز غيظاً ، وقال :

— نعم ، ولكن حين حدث ما حدث لماذا لم تخبرني ، وكتمت عني
هذا الأمر ؟

ثم صاح الرشيد بمسرور :

— أضرب عنق هذا الخائن . . !

فاقتاده مسرور إلى النطع وهو يستغيث وينتحب ، وضرب عنقه . . !

كانت زبيدة في تلك الآونة قد دخلت إلى قاعتها ، حتى لا تشهد
هذا المنظر الأليم ، ثم دخل عليها الرشيد ، فقال لها :

— أ رأيت ما جرّه على هذا الوزير من العار والفضيحة . . انه يخونني
في أهلي ، ثم يخونني في سلطاني والله ليلقين جزاءه .

— لقد مكنت له في ذلك كله يا أمير المؤمنين ، وهو شاب جميل ،
وله آمال ومطامع ومن ورائه شيعة يكيدون لبني العباس ويتربصون بهم ،
ويوقدون النار في الخفاء .

— وهل تظنين أن الأمر ينتقل للبرامكة ؟

— ولماذا ، وقد تزوج وزيرهم من العباسة ابنة المهدي ، وحفيدة المنصور وأعقب منها ولداً يدعى به ويدعى إليه .

— والله لن يكون للبرامكة ، ولا للعلويين ، وسأقضى عليهم جميعاً ثم قام من فوره إلى دار أخته العباسة ومعه مسرور وخادمان آخرون وكانت العباسة ^(١) قد علمت باستدعاء الرشيد خادماً أرجوان من جارياتها مكنونة ، فوقفت في الشرفة وقد استراحت ، وهجس في نفسها أنه دعى لأمر خطير . ثم أرتاعت لما علمت من مكنونة أن مسروراً مع الرشيد ، فقالت لها مكنونة :

— انزلي ياسيدي ، واطلبي الفرار . . انزلي من هذه الشرفة ، واختبئي في الشارع وسأرسل لك من يصحبك إلى الوزير جعفر . . انزلي . . انزلي ولكنها لم تنزل ، وشل الخوف حركتها . وأقبل الرشيد ، ومعه مسرور والخادمان فأمر بإغلاق القصر . ثم دخل على العباسة فاستقبلته مرحبة ، وقالت :

— لقد شرفني أخي بزيارته الليلة . !

فلم يجبها الرشيد ، وجلس صامتاً . فقالت وهي ترتعد :

— خير جاء بك يا أخي في هذه الساعة من الليل والناس نيام ! !

قال الرشيد في غضب :

(١) هذه الصفحة عن جرجي بك زيدان بتصرف في الأسلوب

— ألا تعلمين لماذا جئتك في هذه الساعة والناس نيام . . . !

فقلت : « لا » قال : « خيانتك »

— لا أعرف أنني ارتكبت خيانة . . . !

— أتجيبيني بهذه الوقاحة يا فاجرة . وقد أصبحت خيانتك معروفة ؟

— وأية خيانة تعنى ؟

— أعنى خيانتك مع جعفر الذى لم يرع حرمتى . !

— ألم تعقد على جعفر عقداً شرعياً صحيحاً . !

— بلى ، ولكنى فعلت ذلك ليحل النظر فقط . . .

— وهل يجوز العقد على هذه الصورة . وإذا جوزته أنت ، فهل

يعد من يتم شروطه خائناً . . ثم هل أتينا إلا أمراً حلله الله ، وحرمته

أنت . . أليست طاعة الله أولى من طاعة أمير المؤمنين . ! ؟

— ما هذا يا خائنة . . أخيانة ووقاحة ، وجراءة على أمير المؤمنين . .

إن من يخوننى ويعصى أمرى يحل قتله . . .

— افعل ما شئت . . ولكن إذا لم يكن بدء من أن تعد الحلال

حراماً ، والطاعة خيانة والحق وقاحة ، فإنى أنا الخائنة العاصية . وليس

زوجى جعفر . . .

فنهرها الرشيد وقال لها :

— أراك تحبينه ، وتخلين التبعة عنه . . !

فتنهدت ثم أجهشت بالبكاء وقالت :

— نعم أحبه . . ولولا ذلك ما خالفت لك أمراً
— ويللك . . أتعترفين بحبه في حضرتي . . أنه مقتول ، وأنت
مقتولة أيضاً .

فلما سمعت ذلك غلب الضعف عليها ، وأخذت تتوسل باخوته فأجابها
في قسوة :

— لا تحاولي محالاً ، فقد عصيتما أمرى .
ثم وقف وكأنه يهيم بالخروج ، فاستوقفته وقالت :
— لقد أخرجتني يا هرون حتى أجاتني إلى التصريح بما لم تتعود
سماعه مني ولا من امرأة سوى ، وكيف تحرم أمراً أحلته لنفسك . . !
فاستل الرشيد خنجره ، وكاد يضربها به ، وقال :

— اعزبي أيتها الخائنة لقد دنست شرف بني العباس . . ثم تتجرتين
عليّ بمثل هذا الخطاب يا وقحة ، وتقولين أني أحرم أمراً أحله لنفسى . . !
— نعم أقول ذلك ، فان ما تحاسبنا عليه زواج شرعى أنت عقدته
بيدك فما بالك لم تحاسب نفسك على من تتمتع بهن من الجوارى والسرارى
في قصرك تتهادون بهن بالعشرات والمئات بلا حرج حتى أن نساءكم يهدينكم
من تطيب لكم . . هذه زوجتك زبيدة أهتدتك عشر جوار جميلات ،
وقد فعلت ذلك ، وهى لا ترى فيه عاراً ولا ذنب لها ولا لك ، ولكنكم
ترون ذنباً لمثلئ أن تتزوج من رجل زواجاً أحله الله . !

فصاح الرشيد في غيظ وغضب :

— مسرور . . !

فقال العباسة :

— أنت مصر على قتلى . !

— نعم . . . والآن .

— ألا تخشى الله . . تقتلنى لأنى عصيتك ، وأطعت الله . !

فأعرض الرشيد ، ونادى :

— مسرور . . !

ثم أدار ظهره ، فاستغاثت وبكت ، وهجم عليها مسرور فى وحشية
وأمسك بشعرها فصرخت :

— آه . . أخى . . أبى . .

ولكن مسروراً عاجلها بالسيف ! !

حدث ذلك كله فى ظلام الليل ، لا يعلم به أحد غير الرشيد ومسرور
وخادماه ، وأمر الرشيد فدفنت جثة العباسة فى القصر ، وأغلق بابه على
من فيه من الخدم والجواري وأقام عليه الحراس ، وكأنه ما وقع شيء ،
ولا حدث حادث خطير . . !

وكان الرشيد قد عقد لجعفر بن يحيى على خراسان قبل أن يطلق يحيى
ابن عبد الله العلوى من السجن ، ثم عدل عن ذلك ، وأمره بالبقاء
ليدبر الفتك به

وفى اليوم الذى إعتزم أن ينفذ فيه دعاه إلى الصيد ، وخرج معه

إلى الانبار وكان معهما إبراهيم بن المهدي ، وقضوا يوماً لطيفاً ، ونزل
الرشيد بعد الصيد والرياضة في قصره بهذه البلدة

وذهب جعفر إلى دار صغيرة كان قد أعدها لنفسه ، وصحبه إليها صديقه
إبراهيم بن المهدي ، وجلسا معاً ، فقال جعفر :

— هل لاحظت شيئاً على أمير المؤمنين ، فإني قد استربت في أمره !

فقال إبراهيم :

— رأيته يهزل إذا جدت ، ويجد إذا هزلت . !

— كذا رأيته يا إبراهيم ، ولكن قد يكون ذلك لظن يخامرني . وإن

بعض الظن إثم ، فما أعلم أن الرشيد يقدم على بين العرب والعجم أحداً
أويظن بي شراً . ولقد فضلني حتى على بني هاشم ، وبالغ في إكرامي حتى
زوجني أخته العباسة . . فكيف يتنكر ؟ !

— وزبيدة ... هل نسيت أنك رفعت ابن ضرثها المأمون ، وساويته

بابنها ، فأصبح له منافساً في ملك أبيه ، وهل نسيت الفضل بن الربيع ،

وقد سلبت منه الوزارة التي كانت لأبيه الربيع بن يونس في عهد

أبي جدي

وإنهما لكذلك إذ دخل عليهما إسماعيل بن يحيى (ابن عم الرشيد)

وهو صديق حميم لجعفر ، فقال له :

— هل اعتزمت السفر لخراسان ؟

فقال جعفر :

— نعم ، ولكن الرشيد عدل أخيراً عن تعييني والياً عليها . وسأخاطبه
ليعود في أمره ، فاني استربت من حاله معي اليوم ، وكرهت البقاء
في العراق بين هؤلاء الجواسيس الذين يحيطون بي من كل جانب .
فقال إسماعيل :

— إذا كنت عازماً على السفر إلى خراسان ، وهي بلد كثير الخيرات
واسعة الأقطار ، فأرى أن تهب بعض ضياعك للأمين ابن زبيدة ،
فذلك أحظى عندها وعند الرشيد فغضب جعفر ، وقال :

— والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضل ، ولا قامت
هذه الدولة إلا بنا . . . أما كفى أنى تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه
وولده وحاشيته ورعيته . وقد ملأت بيوت أمواله ذهباً ، وما زلت للأمور
الجليلة أدبرها ، حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدي وعقب . .
والله لئن سألتني شيئاً من ذلك ليكون وبالأعلى عليه . . .

وهنا دخل مؤنس بن عمران صديق جعفر ، فقال له :

— ما وراءك يا مؤنس ؟ . . .

— لا شيء يا سيدي . ولكن الناس يقولون إنك خارج إلى
خراسان . ولو تركت ضياعك بالعراق لولد أمير المؤمنين لكان خيراً . . .

— وأنت كذلك يا مؤنس ؟ . هل تريد أن أهبطها للأمين كما وهبت

قصرى ببغداد للمأمون بعد بنائه .

— لقد كان ذلك خيراً لك فإن أمير المؤمنين الرشيد لما رآك تهدي

إلى ولده قصرک وهو عزیز عندک أكبر هذه الهدية منك ، وأبى قبولها ،
وأقسم ألا يسكنه سواک ، وأهدى إليك أثاثاً نفيساً زينته به .

فسكت جعفر . . . وقام أصدقائه فودعهم في صمت إلى الباب .
ثم عاد جعفر وجلس وحده مفكراً . وصمم على أن يلح على الرشيد في
أن يعيد تعيينه في خراسان ، وأقلقه التفكير في هذه الحال ، فبعث إلى
الطبيب جبرائيل بن بختيشوع ليعطيه دواء يريح أعصابه ، ويزيل ما في
نفسه من المتاعب والهموم . وكان بالقرب منه أبو زکار^(١) الأعمى المغنى
فاستدعاه وطلب منه أن يغنى من شعر السيد الحميرى من كبار شعراء ذلك
العصر ، فغنى :

ما جرت خطرة على القلب منى فيك إلا استترت عن أصحابي
من دموع تجرى فإن كنت وحدي خالياً أسعدت دموعي انتعاجي

فتذكر جعفر العباسة ، وتذكر ولده ، فدمعت عيناه ، ثم استزاده ، فغنى :
عداني أن أزورك غير بغض مقامك بين مصفحة شداد
فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى
وما كاد ينتهى أبو زکار من ذلك حتى دخل مسرور في جماعة من
الجنود ، وقد شهروا سيوفهم ، وقال :

— والله ما جئنا إلا لهذا . . .

فبهت جعفر وقال :

(١) كان أبو زکار من قدماء المغنين . وكان منقطعاً للبرامكة

— ما هذا يا أبا^(١) هاشم

— إننى أمرت الليلة أن أعود برأسك إلى أمير المؤمنين . . .

فارتاع جعفر ، ولكنه تمالك ، وقال :

— إن أمير المؤمنين يمازحنى كثيراً بأصناف من المزاح . وما أراه

إلا أنه يمزح . !

فقال مسرور :

— والله ما افتقدت الليلة من عقله شيئاً ، ولا رأيته شرب خمرأ في

يومه . ولقد راجعته مراراً ، فهم بأن يضرب عنقى .

قال جعفر :

— الله . . الله . . فإن لي عليك حقوقاً لم تجدها مكافأة في وقت

من الأوقات . !

فقال مسرور :

— تجدنى فيما تحب سريماً إلا فيما خالف أمير المؤمنين .

قال جعفر :

— ارجع إليه ، فاعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به ، فإن أصبح

كانت حياتى على يدك ، وكانت لك عندى نعمة مجددة . وإن بقى

على مثل هذا رأى نفذت ما أمرك به فى الغد .

— ليس إلى ذلك سبيل . !

(٢) أبو هاشم كنية لمسور الجلاد

— إذن فأصير معك إلى دار أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك ، فإذا أبديت عذراً ، ولم يقنع بمصيرك إليه برأسي خرجت فأخذتها عن قرب !
— أما هذا ، فنعم .

وهما بالذهاب ، فتعلق ابن زكار الأعمى بمسرور ، وقال له :
— نشدتك الله إلا ألحقتني بسیدی جعفر .. !

— وما رغبتك في ذلك ؟

— إنه أغنانی عن سواء بإحسانه ، فما أحب أن أبقى بعده إن قتل ! .
— حتى أستأمر فيك أمير المؤمنين ، فإن أمر ألحقتك به .

وساروا جميعاً إلى مكان يقرب من الرشيد حيث يسمعه جعفر ولا يراه فدخل عليه مسرور ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين ، قد أخذتُ برأسه ، وما هو ذا في الحفرة ...
فقال الرشيد :

— اثنتي بها ، وإلا قتلتك والله قبله .

فخرج مسرعاً ، وقال لجعفر :

— أسمعت الكلام ...

قال :

— نعم . . فشأنك ، وما أمرت به .

ثم أخرج^(١) جعفر من كه منديلاً صغيراً فعصب به عينيه . . ونفذ
مسرور ما أمر به . . ودخل يحمل للرشيد رأس وزيره . . وكان الرشيد ،
قد دبر القبض في الحال على يحيى بن خالد والد جعفر وأولاده وأنصاره
ومصادرة ما لهم من ضياع ومتاع وأموال وغلمان وجوار . !
ولما فاجأ سلام الأبرش بجنده يحيى بن خالد وهو جالس في قصره وعلم
بموت ابنه جعفر لم يضطرب ، ولم يتغير ، بل صاح قائلاً :
— يا أبا سلامة . هكذا تقوم الساعة . . !



(١) كان قتل جعفر في سنة ١٨٧ هـ

آخرة الرشيد

ليس الموت شيئاً عجيباً ، ولكنه حين يلم
بمعظم من العظماء كهرون الرشيد ، وفي
ظروف خاصة كظروفه ، يكون جديراً بأن
يدون في قصة ، تثير الاهتمام ، وتحوى إلى
جانب ما فيها من عبرة ، أدباً وسياسة

واشتدت العلة بهرون الرشيد في مدينة « طوس » بخراسان ،
وزايلته قوته ، ودب اليأس إلى نفسه وعاد وجهه المملوء بهجة ونضرة
شاحباً كثيباً ، وجسمه القوى المملوء ضعيفاً هزيلًا . وقد مدّوا له سريراً
في بستان الدار ، ووقف طبيبه جبرائيل^(١) بن بختيشوع بجواره حائراً
محزوناً أمجزه القضاء عن التغلب على الداء ، وأفقده الخطر كل سبيل إلى
الرجاء . وشمل الأسى نفوس أصحابه ، وسرى الحزن العميق بين رجال
دولته ، وتجهمت وجوه الجميع ، ولم يبق لهم من الأمل في شفاء أمير
المؤمنين إلا خيط دقيق رقيق ، ودّوا لو نفخت فيه القدرة ، وانبعشت فيه
القوة يبشرى الطبيب الفارسي الذي استنجد به ابن بختيشوع ، وبعث

(١) من أسرة بختيشوع المسيحية خرج منها كثير من الأطباء في القرون : الثامن
والتاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية وبختيشوع كلمة معناها عبد المسيح

إليه بوصف داء الأمير مصحوباً بأثر من ، غير أن الطبيب فحصه
ثم قال :

— عرفوا صاحب هذا الداء أنه هالك ، فليوص ، فإنه لا براء له منه .
وعلم الرشيد ما قاله الطبيب الفارسي ، فابتأس وأنشد :
إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرئ مثله فيما مضى
ووثب متحاملاً ، يقوم ويسقط ، وقد ضاق بالحياة ، وضائق هي
عن شفائه ، واستسلم للفناء ، وأسلمه الفناء إلى الضعف والتهالك . وأشفق
رجاله ، فاجتمعوا يحملونه فنظر إلى جبرائيل بن بختيشوع ، وقال : أتذكر
يا جبرائيل رؤياي بالرقعة^(١) . . ؟

ثم التفت إلى « مسرور » وقال له : « جئني يا مسرور من تربة
هذا البستان »

فمضى ، وأتى بالتربة في كفه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر الرشيد
إليها صاح :

« هذه والله الذراع التي رأيته في منامي ، وهذه والله الكف عينا ،
وهذه التربة الحمراء ما خرمت منها شيئاً » وبكى .

وكان الرشيد قد خرج إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الذي ثار عليه
بسمرقند ، واحتال في الزواج بامرأة يحيى بن الأشعث ، وكانت ذات

(١) الرقة بلدة على الجانب الأيسر للفرات بالعراق .

جمال ويسار ، فوق بينهما ما جعله يتركها بسمرقند ويقيم في بغداد متخذاً السراى ، فلما طال ذلك عليها أرادت التخلص منه ، فعلم رافع بن الليث أمرها ، فطمع فيها ، وأغراها بإعلان خروجها عن الإسلام لتصبح طالقاً من زوجها ، ثم تعود فتنوب . ففعلت وتزوجها رافع .

فشكا يحيى بن الأشعث ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى « على بن عيسى » وإلى خراسان أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعا ، فيجلده ، ويقيده ، ويطوف به على حمار في المدينة تعذيراً له على فعلته النكراء ، وعبرة لسواه . ففعل به الوالى ما أمر به الرشيد ثم حبسه ، فقر رافع من الحبس ، فظفر به على بن عيسى ببلدة « بلخ » وأراد ضرب عنقه ، فشفع له بعض القوم ، وأعيد إلى سمرقند ، فأقام بها . ثم ما لبث أن وثب على عامل المدينة ، فقتله وقتل أصحابه واستولى هو عليها . فوجه إليه على بن عيسى ابنه عيسى ، فهزمه وقتله وأخذ يوسع نفوذه فيما جاوره من البلاد .

هال الرشيد ما فعله رافع بن الليث ، وكان وقتئذ بالركة ، فاعتزم أن يسير إلى خراسان لتأديب الثائرين ، وتأهب للرحيل في جيش ضخم ، اصطخب فيه قواده ووزرائه وأهل أنسه . وقبل الرحيل بأيام دخل عليه طبيبه ابن بختيشوع ، فوجده عابساً واجماً ، وقد استغرق في التفكير ، وبدا على وجهه الحزن والتشاؤم ، فجزع الطبيب ، وخشى أن يكون ضحية من ضحايا تلك الحال الرهيبة التى كانت تعترى الرشيد ، فيأمر بسجن من يريد ، وقتل من يريد لو شاية من الوشايات أو شبهة من الشبهات ، وكأنما غضبه

ورضاه قدر يسوقه الله إلى من يشاء، فتحل به النعمة ، أو تسبغ عليه النعمة
وينزل به العذاب ، أو يصيبه الخير والثواب .

ووقف ابن بختيشوع ملياً أمام سيده . لا يجرؤ على سؤاله ، ولا يجد من
نفسه قدرة على تفهم حاله ، وجهد في مكانه جمود الموت . وكان من عاداته
أن يدخل على الرشيد كل صباح ليتفقد صحته ، ويتبسط الخليفة معه
فيحدثه عن جواريه وساعات أنسه ويسأله عن أخبار العامة ، فلما رآه في
تلك الحال تملك الجزع نفسه ، وعقد الخوف لسانه واشتملت الرهبة جنانه .
وأحس الرشيد ما أصاب طبيبه ، فرفع طرفه إليه ، وتهياً في تكلف
للحديث فتشجع ابن بختيشوع ، وقال :

— جعلني الله فداك يا سيدى . ما حالك ؟ . أعله تشكوها ؟
أخبرنى عنها فلعل عندى دواؤها .

— لا أشكو علة . . .

— هل هى حادثة فى بعض من تحب ، فتلك مما لا يدفع ، ولا حيلة
فيه إلا بالتسليم . والنعم لا درك فيه .

— لا . . . ولا ذاك . . .

— هل ورد عليك فتق فى مملكتك . فإن كان ، فإن الملوك لا تخلو
من ذلك وأنا أولى من أفضيت إليه بالخبر ، وتروحت إليه بالمشورة .

— ويحك يا جبرائيل . ليس غمى لشيء مما ذكرت . وإنما هو
لرؤيا رأيته فى ليلتى قد أفزعتنى ، وملأت صدرى .

— فرجت عني يا أمير المؤمنين . وما أرى فيما رأيت ما يفزحك ويحزنك
— وكيف ذلك ؟ . . .

— إنما الرؤيا لخاطر يتجسم في المنام ، أو من تأثير بخار من أبخرة
الطعام ، أو هي ضغث من أضغاث الأحلام .
— لكنني أخشى أن تكون صادقة ، فقد رأيت فيها حجباً لم أره في
يوم من الأيام .

— وماذا رأى أمير المؤمنين ؟
— رأيت كأني جالس على سريرى ، فبدت من تحتي ذراع أعرفها ،
وكف أعرفها ، وأفهم اسم صاحبها . وفي الكف تربة حمراء . وقال لى
قائل أسمعه ولا أرى شخصه :

« هذه التربة التى تدفن فيها « فقلت » وأين هذه التربة ؟ » . قال
« بطوس » ، وغابت اليد وانقطع الكلام .

— أحسبك يا أمير المؤمنين لما أخذت مضجعتك فكرت فى خراسان
وما ورد عليك من انتقاض بعضها .
— قد كان ذلك . . .

— فهذا الفكر خالطك فى منامك ، فولد هذه الرؤيا ، فلا تحفل بها
جعلنى الله فداك وأتبع هذا الغم سروراً ، وأعد إلى نفسك البهجة
بالموسيقى والغناء .

مضت الأيام على هذه الرؤيا ، والرشيد بمدينة « الرقة » يتأهب للرحيل إلى خراسان ، وذات يوم جمع المغنين ، وعلى رأسهم إبراهيم الموصلي ، وحضر فيهم مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة ، وكان مليح البادرة ، حاذقاً فى العزف على القضيبة . فشرب الحاضرون ، وعمل فيهم النبيذ ، فأمر الرشيد « ابن جامع^(١) » أن يغنية فغنى ، فلم يطرب ، فاقترح على غيره فلم يطرب ، فقال الرشيد ، « فليغن أبو صدقة » .

فأندفع أبو صدقة يغنى قول الشاعر :

قف بالمنازل ساعة فتحمل فلسوف أحمل للبلى فى محمل
فقال الرشيد : « يا مسكين أعده » فأعاده ، فأشجاه وأطربه ، وقال له : أحسنت وأجملت .

وعجب الحاضرون لاستحسان الرشيد لغناء مسكين المدنى مع وجود فطاحل الموسيقى والغناء فى هذا الحفل .

ورفعت الستارة عن المغنين ، فقال مسكين :

— يا أمير المؤمنين إن لهذا الصوت خيراً . . فقد كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير وكان لمولاى على^٢ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين ، فخطب يوماً قميصاً لبعض الطالبين ، فأطعمنى وسقانى أقداحاً ، ودفع لى درهمين ، فخرجت وأنا جذلان ؟ فلقيتنى سوداء على رأسها جرة ، وهى تغنى هذا الصوت فأذهلنى عن كل مهم ، وأنسانى كل حاجة ، فقلت

(١) كان ابن جامع ينافس إبراهيم الموصلى فى زعامة الغناء والموسيقى فى ذلك العصر

لها : « بصاحب القبر والمنبر إلا ألقيت على هذا الصوت » فقالت : وحق صاحب القبر والمنبر لا ألقيته إلا بدرهمين » فدفعت إليها الدرهمين ، فأنزلت الجرة عن عاتقها ، واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب على صدرى ، ثم انصرفت إلى مولاي ، فقال : « هلم خراجك » فقلت له : « كان . . . وكان . . . » فقال : « يا ابن اللخناء ^(١) » وبطحنى وضربنى ، وحلق لحيتى ورأسى . وبت ليلتى من أسوأ خلق الله حالا ، وأنسيت الصوت مما نالنى فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها . واننى لكذلك إذ نظرتها مقبلة ، فنسيت كل ما نالنى وملت إليها ، فقلت : « أنسيت الصوت ورب الكعبة » وعرفت ما أصابنى ، فقالت : « وحق القبر ومن فيه لافعلت إلا بدرهمين » فرهنت جلمى ^(٢) على درهمين ، ودفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن رأسها ، ومرت فيه . ثم قالت :

— كائن بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف درهم . . .

ثم انصرفت إلى مولاي خائفا مكتئباً . فقال : « هلم خراجك . . . » فلويت لسانى ، فقال : « يا ابن اللخناء ألم يكفك ما أصابك بالأمس » فقلت : « أسمعك الصوت الذى اشتريته أمس واليوم » : واندفعت أغنيه ، فقال : « ويحك معك مثل هذا الصوت ولم تعلمنى . . . امرأته طالق لو كنت قلته بالأمس لأعتقتك » . . . !

(١) اللخناء الثينة الجسد (٢) الجلم بفتح الجيم واللام آلة كالمقص للجلم الصوف

فضحك الرشيد . وقال : « ويلك ما أدري أيهما أحسن : حديثك أم غناؤك ، وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء » !

وسار الرشيد بجيشه يريد خراسان ، وقد استخلف على الرقة ابنه « القاسم » وعلى بغداد ابنه « الأمين » واصطحب معه ، « المأمون » وكان يعطف عليه ويقدمه لنجابتة ، وقد مهد له قبل وفاته للفوز بالخلافة ، وضم إليه كبار قواده ، وكان يود له البيعة من بعده لولا حبه لزوجته زبيدة ، وخشيته من بني هاشم وانتقاض العرب عليه .

وصحب المأمون والده في رحلته ، حتى إذا وصلوا إلى « جرجان » كانت العلة قد دبت في جسم الرشيد ، فأمر المأمون بالتقدم إلى مرو مع فريق من جيشه وقواده العظام ، وفيهم عبد الله بن مالك ، ويحيى بن معاذ ، والعباس بن جعفر ، ونعيم بن حازم . وتقدم هو بمن معه إلى « طوس » . وهناك اشتد الداء ؟ وأعجزه الضعف عن المسير . وكانوا قد نقلوا إليه ما شككه في نية المأمون وما جعله يعتقد أنه هو وأخاه الأمين يحوكان حوله الدسائس ، ويحيطانه بالعيون ، ويستعجل كل منهما موته ليفوز بمأربه في الملك والسلطان .

ودخل عليه الصَّبَّاح الطبري وهو في مرضه ، فقال له الرشيد : « ما أظنك تراني أبداً . . »

— عافاك الله يا أمير المؤمنين ، وحفظك للدنيا والدين . !

— إنك لا تدري ما أجد ، ولا تعرف ما أصابني . فلا والله ما أشكو
من علة الجسد مثل النبی . أشكوه من هم النفس .

— وماذا يخشى أمير المؤمنين والأمة حوله ، مجمعة على حبه ، راضية ،
بحكمه ، سعيدة في ظلاله قوية بعزمه وسداده ؟

— كان ذلك . . ولكن أمراً أخشاه من بعدى ، وقد بدأ منذ دب
المرض إلى بدنى . فالأمين والمأمون يتنافسان ، وقد صار لهما بين رجالى
حزبان ، ولكل واحد منهما على رقيب . فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل
ابن ينجشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ،
ويستطيل دهرى ، وإن أردت أن تعلم ذلك ، فالساعة أدعو بدابة ،
فيأتونى بها عجفاء قطوف لتزيد بى علقى .

ثم دعا الرشيد بدابة فأتوا بها كما وصف ، فنظر إلى الصبح وركب!..

وأقام الرشيد بطوس ، فجاءه أنباء انتصار هرثمة بن أعين والى خراسان
الجديد على رافع بن الليث ، وأسر طائفة من أهله وصحبه وفيهم أخوه
بشير بن الليث ، وقد بعث بالأسرى إلى « طوس » .

سر الرشيد بهذا النصر وتفاءل خيراً ، وزال عنه كثيراً مما يجده من
الآلام ، وابتهج ساعات من نهار ظن فيها أن العلة قد زایلته وعادت إليه
صحته ، واستعاد بهجته ونشاطه ، ومرت برهة من الزمان ، ثم أحس بالداء
يهاجم بدنه ، فابتأس الرشيد وعاد إلى يأسه ، واستفحل هذا اليأس حين

علم ما قاله عنه الطبيب الفارسي . فقد أرسل إليه ابن بختيشوع يستشير
ويسأله المعونة في علاج الأمير فبعث يقول :

— عرفوا صاحب هذا الداء أنه هالك ، فليوض فإنه لا براء له منه .
ووثب متحاملاً يقوم ويسقط ونقم على هؤلاء الثائرين الذين
جشموه متاعب هذه الرحلة . ودعا بأخى رافع « بشير بن الليث »
وصاح به :

— أزعجتموني حتى تجشمت هذه الأسفار ، مع علتى وضعفى ، والله
لو لم يبق من أجلي الآن إلا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت : « اقتلوه »
ولأقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك . ثم أمر بقصاب ففصله عضواً
عضوا

واشتدت العلة بالرشيد وشعر بالموت يداف في بدنه ، فقال لجبرائيل
ابن بختيشوع :

— أتذكر يا جبرائيل رؤياى بالركة ؟ ! . . .
ثم التفت إلى مسرور وقال له :
— جئنى يا مسرور من تربة هذا البستان .
فمضى مسرور وأتى بالتربة فى كفه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر
إليها قال :

— هذه والله الذراع التى رأيتها فى منامى ، وهذه والله الكف عيناها
وهذه التربة الحمراء ، ما خرمت منها شيئاً ؛ وبكى . . .

وأثقل على الرشيد ، ودب إليه الفناء ، وأرجف به أصحابه ، قبله ذلك ،
وخشى الفتنة ، فأمر بمطية يركبها ليراه الناس ، فجىء له بفرس فلم يقدر
على النهوض ، فجىء له ببرذون ، فضعف عنه ، فجىء له بجمار فلم يستطع
ركوبه فقال :

— ردوني . . ردوني . . صدق والله الناس . وأنشد .

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه رمتني عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً ، وقد كنت محسداً فصبراً على مكروه أمر النوائب
وأيس الرشيد من نفسه ، واستهلك في يأسه ، ودخل عليه سهل بن
صاعد ، وهو يقاسى ما يقاسي فقال : « عافى الله أمير المؤمنين » .

— أحسنت الدعاء وأصبت لو استجيب . .

— أرجو لك ذلك . .

فضحك المريض العظيم على فراش موته ضحكا ضحيجاً ، ثم التفت إلى
سهل وقال :

وإني من قوم كرام يزيدهم شماساً وصبراً شدة الحدثان

. وغشيته سكرات الموت ثم استفاق ، فدعا أصحابه وقال لهم :

— « إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بي ما ترون

وأنا أوصيكم بثلاث :

« الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا

الأمين والمأمون فمن بغى منهما عن صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوه له » .

ثم أمر بحفر قبر في موضع من بستان الدار ، وأنزل إليه قوماً قرأوا فيه القرآن حتى ختموه ، وهو في محفة على شفير القبر يقول : « ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، يا ابن آدم تصير إلى هذا . . . واسوأته من رسول الله . . . » !!

وأغنى عليه فحملوه إلى داخل الدار ، فبقي في إغمائه ثلاثاً ، ثم صعد^(١) في الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ بعد أن قضى حظه من حياة ما زالت مضرب الأمثال فيما جمعت من علم وأدب ، وأنس وطرب ، ونور وظلام ، وتسامح وانتقام ، وعبر من حكم الفرد وجبروت السلطان .



(١) بويع هرون الرشيد بالخلافة في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٠ هـ . فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وبضعة أشهر

على نحر حبة

هي مأساة خليفة شاب ، وقصة مروعة بين
أخوين تنازعا على الخلافة والسلطان ، هما ،
« الأمين » و « المأمون » ابنا هرون الرشيد
وهي تتضمن تصويراً فنياً دقيقاً لهذا الحادث
التاريخي وما أحاط به من ظروف وأسباب .

وأدخل الخليفة « الأمين » أسيراً في دار أبي صالح السكاكيب ، وقد نشر
الظلام لواءه ، وفنى نور الشفق فناء الأمل في نفس اليائس ، وأدلم الخطب
وأمسى الأمين في حصارين شديدين ، وبين كتيبتين عظيمتين : كتيبة
الليل الداجي البهيم ، وكتيبة طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وإرتعد من
الجزع والبرد لفرقه غدراً في مساء قارس ثم لإحاطة شياطين الجند به ،
ودفعهم إياه كما يُدفع المجرم الأثيم ، وهو خارج من مياه دجله ناجياً بنفسه
هارباً من هذا النهر الذي طالما جرى في خدمته ، وتهادى في أعطاف
ملكه ، وكان أوفى له من وزرائه وقواده ، وأحب إليه من عامة جنده ،
فلما بلغ الشاطئ بين الناجين من الغرقى شمّ منه جنود طاهر رائحة المسك
فأمسكوا به قائلين :

— هذا المخلوع . . . هذا المخلوع . . .

فقال الأمين :

— ما أنا بالخلوع . . إنما أنا المخذول . . أنا المخذول من جندي وقوادى ، دعونى . . . دعونى حتى أرتدى ثيابى ، فأنى أستحي أن ألقى الناس . . !

فقالوا :

— إنك لن تفلت اليوم منا . . !

فدفعهم الأمين ، ودافعوه ، وكان قوى الجسم ، طويل القامة ، حلواً جميلاً ، فتكاثروا عليه وشهروا فى وجهه السيوف ، وحملوه على جواد كما يحمل الأسير ، وانطلقوا به إلى تلك الدار ، وزجوه فى حجرة ضيقة ، وهو يكاد يكون عريان لا يستره غير سراويل وعلى كتفيه خرق ممزقة وقد تائم بعمامته ، ولم يكن هناك غير أحمد بن سلام جىء به مأسوراً حتى يفي بفديته فى الصباح . وبالحجرة حصير ووسادتان وسراج مختصر ضئيل يبعث الكآبة واليأس . وكان المكان ساكناً رهيباً ، والجند من ورائه واجمون متحفزون ، لا يسمع بينهم غير صلصلة السيوف ، وصهيل الخيل ولا شاغل لهم إلا مصير هذا العاهل السجين .

وجلس الخليفة الأمين على حصير حقير ، وكان قبل ساعة يجلس على أريكة قصر الخلد على ضفاف دجلة ، وعليه قلنوسة وثياب بيضاء ، وطيلسان أسود ، وبيده الخاتم والقضيب ، وحوله جواريه ، وغلمانہ يحيطون به ، وكلهم يبذل له نفسه ويتفانى فى خدمته ، ويقدم إليه معونته .

ومرت لحظات استعرض فيها كل ما مر به من جاه عريض ، وعيش
باسم رغيد وملك واسع السلطان ، انتظم المشرق والمغرب ، من تخوم الصين
إلى أقاصى البحر الأبيض ، وحوى من الولاة والقواد والجنود من يُرهب
بهم الملوك ، ويستذل بهم الأمراء والسلاطين ، لو أنه جمع إليهم قوة العزيمة
وسداد الرأى ، ودربة السياسة وأمانة الأصحاب والأنصار .

وكان أحمد بن سلام ينظر إليه فى هذه الحال مستعبراً ، ويتحدث فى
نفسه مسترجعاً . ولما أفاق الأمين من غشيته ، نظر إليه ثم قال :

— أيهم أنت يا هذا ؟

فقال أحمد :

— أنا مولاك يا سيدى . .

— وأى الموالى أنت ؟ . .

— أنا أحمد بن سلام صاحب المظالم .

— وأعرفك بغير هذا . . كنت تأتينى بالرقّة ، وكنت تلاطفنى كثيراً

لست مولاي بل أنت أخى . .

— بل أنا عبدك يا سيدى . .

— كلا ، كلا ، فقد زال غنى ما يعبدّه الناس . . ! !

فقال أحمد :

— قبّح الله الفضل بن الربيع ، فقد أوردك هذا المورد ، ثم فرّ كما

يفر الثعلب . !

فقال الأمين :

— وقبح الله الفضل بن سهل ، فقد أراد أخى على معاداتى ، وما كنت أريد به شراً حين دعوته ، وما رغبت فى قتله ، ولو كان حياً ما أراد قتلى — أو ليس المأمون حياً ؟ !

— بلى فقد سمعت أنه مات . . . !

فقال أحمد فى دهشة :

— وهذا القتال عمن إذن ؟ !

فقال الأمين فى ثقة وإيمان :

— ليس عن أخى إذا كان حياً ، ولا عن أحد من آل العباس ، ولكنه عن خصام بين العرب والفرس . كل يريد السيادة لجنسه ، والسلطان لبنى قومه ، وما أظن الفرس قد أيدوا أخى إلا لأنهم أخواله ، ولأنهم يكرهون العرب ، أما أنا فهاشمى الأب والأم . وما أظن العرب كانوا يؤيدوننى إلا لذلك .

ثم ارتجف وتهالكت نفسه ، وقال :

— يا أحمد أدن منى ، فانى أشعر بوحشة شديدة . ما تراهم يصنعون بى ، أتراهم يقتلوننى ؟ أم تراهم يسجنوننى ؟ . . . !

وخلع أحمد بن سلام مبطنة كانت عليه وألبسه إياها ، وضمه إليه ، فوجد قلبه يخفق خفقاناً سريعاً . . .

كان الربيع بن يونس والد الفضل بن الربيع وزيراً للمنصور ، ثم وزيراً للمهدى ، والهادى ، وكان رأس الحزب العربى فى الدولة العباسية ضد القرس . وقد توفى فى زمن الهادى ، فلما تولى الخلافة هرون الرشيد ، واستوزر يحيى بن خالد البرمكى عظم ذلك على الفضل بن الربيع والحزب العربى . وكان الفضل يطمع أن يخلف أباه فى الوزارة ، وأن يكون سلطان الدولة بيد العرب لا بيد الفرس ، فسعى جاهداً حتى كان أعظم الهادمين لمجد البرامكة ، والدافعين إلى نكبتهم ، واتخذ الرشيد وزيراً له بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكى .

وكان الفضل بن سهل من مجوس خراسان ، وكان شجاعاً هماماً ، فاختره يحيى بن خالد البرمكى لخدمة المأمون وهو صبى فأسلم على يده ، وأنس فيه النجابة والذكاء ، فتوقع أن تؤول الخلافة إليه ، وأن يظفر عنده بالوزارة فلا يخرج سلطان الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي العرب ، وكذلك كانت سياسة الوزراء الفرس وأعوانهم فى عهد العباسيين . فلما أخفقوا ، وحلت بهم نكبة البرامكة ، وانتصر الحزب العربى بزعامة الفضل بن الربيع أضمرُوا الحقد لخصومهم واعتزموا الثأر لأنفسهم .

وكان المأمون من أم فارسية تدعى « مراجل » فكان الفرس أحواله وكان الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ، فهو هاشمى الأب والأم ، فتمثل فى الأخوين الحزبان المتنافسان : الحزب العربى ، والحزب الفارسى ، فلما أراد الرشيد قبل وفاته البيعة لولى عهده من بعده

نشط كل من الحزبين فكان الأول يؤيد الأمين ، والثاني يؤيد المأمون
وجلس الرشيد قبل وفاته بسنوات مشغول البال مهموم النفس؛ ثم قال
لن حوله « عليّ بيمحيي بن خالد » فما لبث أن جاء إليه ، فقال له :

— يا أبا الفضل إن رسول الله (ص) مات في غير وصية ، والإسلام
جذع والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد أمنها الله تعالى بعد الخوف
وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبي بكر . وكان من
خبره ما قد علمت . وإن أبا بكر صيّر الأمر إلى عمر ، فسلمت الأمة له
له ورضيت بخلافته ، ثم سيرها عمر شوري ، فكان بعده ما بلغك من الفتن
حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ، فان ملت
إلى عبد الله المأمون أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمداً الأمين لم
آمن تخليطه على الرعية

وتشاور الخليفة ووزيره مليا ، ثم استقر الرأي على أن تقسم الدولة إلى
قسمين : قسم يليه الأمين وهو العراق والشام وما بعدها إلى بلاد المغرب ،
وقسم يليه المأمون وهو خراسان وسائر البلاد المشرق على أن تكون الخلافة
للأمين ، وكان القواد والجنند في ذلك الحين يعملون في أطفاء الفتن في
خراسان تحت أمرة المأمون ، فلما علمت أم جعفر زبيدة بهذا الاتفاق ،
دخلت على الرشيد وقالت :

— ما أنصفت يا أمير المؤمنين ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته
من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله المأمون . . .

فقال الرشيد :

— وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال ، إني وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم .

فانصرفت زبيدة ، وهي تكابد كمدأ وغيظاً . . !

وخرج الرشيد حاجاً قبل نكبة البرامكة بعام ، ومعه وليا عهده الأمين والمأمون فكتب البيعة لهما بحضور الوزراء والقواد ، وحلف الأمين للرشيد على الوفاء بالعهد ، فلما أراد الخروج من الكعبة رده جعفر بن يحيى البرمكي وقال له :

— فان غدرت بأخيك خذلك الله ؟

فقال الأمين : نعم خذلني الله أن غدرت بأخي .

فرده جعفر ثانياً ، وثالثاً . وفي كل مرة يجيبه بهذا الجواب .

وأنبأ الفضل بن الربيع زبيدة ما فعل جعفر البرمكي بالأمين ، فزاد من حقد ها عليه . وأمر الرشيد بتعليق كتاب البيعة في الكعبة ، فوقع الكتاب على الأرض ، فتشائم الحاضرون ، وقال أحدهم في نفسه :

— إن هذا الأمر سريع انتقاضه . . ؟

وتوفي الرشيد بطوس ، والمأمون معسكر بمدينة مرو بخراسان ، والأمين يتولى العراق والشام . فأسرع الفضل بن الربيع بالعودة إلى بغداد ، وحث القواد والجنود على السير معه ، واللاحق بالأمين ، ورغبتهم ومنّاهم ،

وأيقظ في نفوسهم الجنان للأهل والأوطان ، فاستجابوا له ، وراحوا معه ،
وحملوا كل ما كان مع الرشيد من مال وعتاد .

وبلغ المأمون موت أبيه ورجوع جيشه وقواده ، وأخذهم ما أوصى به
الرشيد له ، وخشى أن تذهب الولاية من يده بتحريك الفضل بن الربيع
فجمع رجاله وشاورهم في أمره . فقال الفضل بن سهل :
— ما الذي يخشاه الأمير ، وقد نزل في أخواله ، وبيعته في أعناقهم .
اصبر فلسوف تكون لك الخلافة .

وقال غيره من الحاضرين ما قاله الفضل ، فاطمأن ، واتخذ وزيراً ،
وقال له :

— قد صبرت ، وجعلت الأمر إليك فقم به .

نهض الفضل بن سهل بأمر المأمون ، وجعل يستميل إليه الناس ،
ويصرفهم عن الأمين حتى اشتدت العداوة بين الأخوين وقطعت الدروب
بين بغداد وخراسان ، ومنع المأمون ذكر اسم الأمين في الخطب ، وقبض
على ولاته وعماله ، وولى غيرهم من رجاله فلما بلغ الأمين ما فعله أخوه بعث
يستدعيه بكتاب ، فاعتذر ، فبعث إليه مرة أخرى يستحلفه بالرحم ،
ويستأمنه ، وكاد يعود إلى بغداد لولا أن الفضل بن سهل أغراه بالامتناع ،
وحذره من السفر ، فرفض اطاعة الخليفة ، فأشار الفضل بن الربيع على
الأمين بخلعه من ولاية العهد واسنادها إلى ابنه موسى . وزين له محاربتة
وأسره ، فانه إن بقي بخراسان اشتدت شوكتة ، وعظم خطره ، وازداد سلطانه .

وجهز الأمين جيشاً لمحاربة أخيه المأمون بقيادة علي بن عيسى بن ماهان ، وكان من خيرة القواد ، فخرج في خمسين ألفاً كاملة العدة ، وركب معه الأمين مودعاً إلى ظاهر المدينة ، ومر الجيش بباب زبيدة فخرجت إليه ، واستدعت قائده ، وقالت له :

— يا علي أن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى وإليه انتهت شفقتي ، فإني على عبد الله المأمون لمنعطفة مشفقة ، فاعرف له حقه ، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيراً له ، ولا توهنه بقيد أو غل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تساوه في المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، وإن شتمك فاحتمل . . .

ثم دفعت إليه قيئاً من فضة ، وقالت :

— إذا صار إليك فقيده بهذا القيد

فقال لها : « سأفعل » . وكان الناس يجزمون بنصرة علي بن عيسى لشجاعته ومقدرته .

وسار الجيش من بغداد في موكب حربي رهيب ، حتى وصل إلى « الرى » وكان طاهر بن الحسين معسكراً بها في أربعة آلاف . ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، فاستمال طاهر جنود علي وقواده بالعطايا والأموال ودس فيهم من حرض بعضهم على الانضمام إليه ، فانهزم علي ابن عيسى هزيمة منكرة وقتل في الموقعة ، وتشتت شمل رجاله وأخذت رأسه إلى طاهر ، فكتب إلى الفضل بن سهل وزير المأمون يقول :

« كتابي إلى أمير المؤمنين ، ورأس « على » بين يدي ، وخاتمه في أصبعي ، وجنده متصرفون تحت أمري . والسلام » .

فدخل الفضل على المأمون وهناه بالنصر ، وهرع الناس إليه يسلمون عليه ويهنئون به بالخلافة ، وطاف جند المأمون برأس على بن عيسى في خراسان .

و بلغت الهزيمة الأمين ، فاعتم ، وأحضر الفضل بن الربيع ، واستشاره فأشار عليه بمصادرة أملاك المأمون ، فأحضر وكيله نوفل الخادم ، وقبض ما بيده من ضياع المأمون وغلاته وأمواله . ثم تتابعت الحروب بين الأخوين واشتدت الوقائع بين الفريقين ، فظهر المأمون على الأمين ، وتكررت هزائمه ، وتعدّد خروج الولاة عليه ، ونكوص القواد عن طاعته ، وانضمام الجند إلى أعدائه . وكان طاهر بن الحسين قوى الهزيمة ، بارع الحيلة ، عظيم الدهاء ، فاستعان بالدسائس والمال على الفوز في ميادين القتال ، حتى دانت له البلاد ، وحصر الخليفة في بغداد .

تحصن الأمين بمن معه من فلول جيشه بالمدينة ، وحاصره طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين حصاراً شديداً لقي منه البغداديون عنتاً وجوعاً مميتاً ، فقت في عضدهم وتمنوا الخلاص من بلائهم ، فانضموا إلى أصحاب طاهر ، فزاد ذلك في ضعف الأمين ، وانصرف القواد والجند عنه . ودخل طاهر وهرثمة المدينة ، واستوليا عليها ، وتحصن الأمين بقصره ،

وبقى به محصوراً ثلاثة أيام . ودخل عليه حاتم بن الصقر ، ومحمد بن إبراهيم ، وبعض رجاله ، فقال لهم الأمين :

— أهكذا تخذلوننى أيها القواد وتلكؤون فى طاعتى انتظاراً لما تصيبون من خير ، فالحمد لله الذى يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، وإليه المصير . أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال

فقال حاتم :

— قد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى . وقد رأينا رأياً نعرضه عليك .

فقال الأمين :

— أالرأى مجال فى هذه الحال ، وليس لنا عدة ولا مال ، وقد أحيط

بنا من كل جانب !!

— نعم . لقد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى ، ولكننا نرجو أن يكون

الرأى الأخير الذى نعرضه عليك صواباً ، ويجعل الله فيه خيراً .

— وما هو ؟

— لقد بقى من خيلك معك ألف فرس من جيادها ، فترى أن تختار

ممن عرفناه بمحبتك سبعائة رجل ، فتحملهم على هذه الخيل ، وتخرج

ليلاً من باب من هذه الأبواب ، فإن الليل لأهله ، ولن يثبت لنا أحد

إن شاء الله .

— وإلى أين نسير ؟

— إلى الجزيرة والشام ، فتفرض الفروض . وتجيئ إخراج ، وتصير
في مملكة واسعة وملك جديد ، فيسارع إليك الناس ، وينقطع عن
طلبك الجنود .

— نعم الرأي ما رأيتم . . .

واتصل الخبر بظاهر بن الحسين ، فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر ،
وإلى محمد بن عيسى بن نهيك ، وإلى السندی بن شاهك . وهم من
أصحاب الأمين :

« والله لئن لم تردوه عن هذا الرأي ، لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها
ولا تكون لي همة إلا أنفسكم » .

فاجتمع الرجال الثلاثة وتشاورا فيما بينهم ، ووازنوا بين ما يصيبون
وما يخسرون في وقت ليس لهم فيه عند الخليفة التمس مطمع فغلبت على
نفوسهم شهوات الدنيا — شأن بطانة الملوك — ودخلوا على الأمين فقالوا :
— قد بلغنا الذي عزمتم عليه ، فنحن نذكرك الله في نفسك . إن
هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم
المذهب وهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك . ولسنا نأمن إذا برزوا بك
وحصلت في أيديهم أن يأخذوك أسيراً ويقتلوك ويتقربوا برأسك إلى عدوك .
فظن الأمين أنهم ناصحوه ، فأجابهم :

— نعم الرأي ما رأيتم . !

فقالوا :

— وإنما غايتك اليوم السلامة واللهم ، وطاهر يتركك حيث أحببت ،

فأخرج اليوم وأعطه خاتم الخلافة والبردة والقضيب .
قال الأمين :

— ويحكم أنا أكره ابن الحسين ، فإنني رأيت في منامي كأنني قائم
على حائط شاهق عريض الأساس ، وعلى سوادى ومنطقتى وسيفى
وقلنسوتى . وكان طاهر فى أصل ذلك الحائط فما زال يضربه حتى سقط ،
وسقطت قلنسوتى . فإن كان لابد من الخروج فإلى هرثمة قائد أبى فهو
مولانا وهو بمنزلة الوالد ، وأنا به أشد أنساً وأقوى ثقة .

قال السندى بن شاهك :

— صدقت يأمر المؤمنين ، فبادر بنا إلى هرثمة ، فإنه يرى أن
لا سبيل عليك إذا خرجت إليه . وقد ضمن لى أنه مقاتل دونك إن هم
أحد بقتلك .

واتفق الجمعان على خروج الأمين ليلاً من قصره فيعبر نهر دجلة مع
هرثمة وأصحابه فى « حرّاقة » إلى منزل ببستان موسى حيث يخلع الأمين
بردة الخلافة ويسلمها هرثمة مع الخاتم والقضيب .

وعلم طاهر بن الحسين بما دبره هرثمة ، فاشتد عليه ألا يكون الفتح
بيده ، واعتزم أن يمنع الأمين من تنفيذ هذا الاتفاق . وأكن له حول
قصر الخلد ، وقصر أم جعفر ، وعلى شاطئ دجلة ، كمناء من جنوده
يحملون السيوف والنشاب .

وتهيأ الأمين للخروج ليلة الأحد السادس من صفر سنة ١٩٨ هـ وجاء
بعض الخدم فأخبره بما دبره طاهر حول نهر دجلة ، ونصحه بتأجيل

ما اعتزم عليه ، فأبى وقلق قلقاً شديداً ، ولكنه فضل الخروج ، ولبس ثياب الخلافة ونزل إلى صحن القصر ، فجلس على أريكته ، وأحضر ابنه القاسم وعبد الله فقبلهما وقال :

— أستودعكما الله ؛ فلست أدري ألتقي بكما أم لا . الله خليفتي عليكما . . وبكى ، وبكى الطفلان ، وبكت أم جعفر ، وبكت زوجته لبابة وجواريه . . .

ثم نهض إلى فرسه الزهرى ، فامتطى صهوته ، وخرج معه غلاماه عيسى الجلودى وابنه محمد ، على جوادين يحرسانه ، وأمامهم رجل يحمل مصباحاً واحداً وساروا حتى أتوا إلى باب خراسان ، ففتح . فدخلوا منه إلى المشرعة بشاطيء دجلة فإذا حراقة هرثمة فنزل إليها الأمين ومن معه ، وقام هرثمة وأصحابه وفيهم أحمد بن سلام صاحب المظالم ، فقال هرثمة : « ياسيدى وابن سيدى » وعانقه وقبله بين عينيه ثم جعل الأمين يتصفح وجوه الحاضرين .

وأمر هرثمة بالحراقة أن تدفع ، فسارت على مياه دجلة ، والظلام حالك رهيب والقلوب واجفة ، والنفوس مشفقة ، وعيون جند طاهر ترقبها كما يرقب الوحش فريسته والصائد صيده ، وقد تحفزوا للغدر بالعابرين .

وإنهم فى وسط النهر إذا بالجند يخرجون إلى الحراقة فى الزوارق من كل جانب خروج الشياطين ، وبعضهم يتعلق بها يحاول إغراقها ، وبعضهم يرميها بالسهم والأجر ، وبعضهم يطعن بالرمح حتى نقبت ، وانكفأت بمن فيها ، فمزق الأمين ثيابه وسبح فى الماء وسبح هرثمة وأحمد بن سلام ومن

معه . وقبض بعض الجند على أحمد ، فافتدى نفسه بعشرة آلاف درهم ،
يدفعها في الصباح : فاقترادوه إلى دار أبي صالح الكاتب وسجنوه حتى
يدفع فديته .

وخرج الأمين من الماء مبهثراً منهوكاً يكاد يكون عريان لا يستره غير
سراويل ، وخرق ممزقة ، ورائحة المسك تفوح من جسمه فعرفه جند طاهر
فأمسكوا به قائلين :

— هذا الخلوع . . هذا الخلوع . . !

. . . وحملوه على جواد كما يحمل الأسير ، وانطلقوا به إلى دار أبي صالح
وألتقى بأحمد بن سلام ، فقضى معه آخر ساعاته في هول وأسر شديد ضربه
عليه صعاليك الجند . وساقه إليه خذلان القواد والأعوان .

وارتجف الأمين وقال : « يا أحمد ادن مني ، فإنني أشعر بوحشة
شديدة . . ما تراهم يصنعون بي . أتراهم يقتلونني ؟ أم تراهم يسجنونني ؟ !
وخفق قلبه خفقاناً سريعاً ، ومرت به ساعة من الليل على هذه الحال
لقى فيها الأمين ما أنساه أبهة الملك ، وعز الجاه ، ومتعة السلطان . وإنه
لكذلك إذ دق باب الدار ، ففتح ، ودخل رجل عليه سلاح ، فنظر في
وجه الأمين نظرة فاحصة . ثم ارتد عائداً

وكان منتصف الليل فإذا حركة وقوم يدقون الباب مرة أخرى ، ففتح
لهم فدخلوا وبأيديهم سيوف مسالوة وفؤوس مسنونة ، فجزع السجينان ،
واختبأ أحمد بن سلام خلف الحصير وأخذ الأمين وسادة يحتمى بها ،
وهو يقول :

— ويحكم .. ويحكم .. أنا ابن عم رسول الله .. أنا ابن هرون
الرشيد .. أنا أخو المأمون .. الله الله في دمي .. !

فأحجموا قليلا ، وجعل بعضهم يقول لبعض تقدم ، ويدفع بعضهم
بعضاً . ثم تقدم « خمارويه » مولى قریش الدندانى ، فضربه بالسيف
ضربة وقعت فى مقدم رأسه فصاح الأمين : « آه .. ويلك .. » وضربه
بالوسادة التى بيده ، واتكأ عليه ليأخذ سيفه ، فصاح خمارويه :
— قتلنى الخلو ع .. قتلنى ..

فاجتمعوا عليه وعاجلوه بالسيوف والفؤوس ضرباً وطعنأ ، ثم ذهبوه . !

فاضت نفس أمير المؤمنين على هذه الصورة الشنعاء^(١) ، وذبحه صعاليك
الجنود كما تذبح الشاة ، ثم فصلوا رأسه ، وحملوها إلى طاهر بن الحسين ، فنصبها
على باب الأنبار ، وخرج الناس أفواجا ينظرون !

وبعث ابن الحسين برأس الأمين مع البردة والنجاةم والقضيب إلى
الفضل بن سهل ، فدخل على المأمون يحمل الرأس على ترس ، فلما رآها
اشتد عليها وبكى ، فقال الفضل :

— الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة .. ! !

فقال المأمون :

— أو تظنها نعمة جليلة .. ! إن الأمين أخى ، وابن هرون الرشيد ..

(١) قتل محمد الأمين فى صفر سنة ١٩٨ هـ . وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة
و ٢٣ يوماً . وكانت خلافته أربعين وستة أشهر .

فقال الفضل :

— أو لم يتمنّ يا مولاي أن يراك بحيث تراه الآن ؟ وأن يظفر دونك
بما ظفرت به ؟ ! .

فسكت المأمون ، وبعث بالرأس إلى بغداد حيث دفنت مع جثة
الأمين . وما لبث أن سلا وتعزّي بما آل إليه من ملك وسلطان . والملك
عقيم لا يعرف أخاً ولا ابناً ولا رجلاً ... !



فهرس

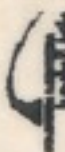
صفحة	
٣	كلمة المؤلف — هذه هي القصص
٧	ميلاد دولة
٢٤	النساء
٣٨	الشاعر
٥٢	عقد الجواهر
٦٥	أديب
٨٠	قائد العصر الذهبي
٩٨	في السجن
١١١	انتقام
١٢٧	مصرع بشار
١٤٣	الخيزران
١٥٤	الزاهد
١٧٠	الطرب
١٨٤	زبيدة
٢١٠	آخرة الرشيد
٢٢٢	على نهر دجلة

۱۹۴۵/۵/۱/۱۴۶۸



دار المعارف للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0412589

التمن ٢٥